

الحلقة الثالثة ـ قصص الخلفاء الراشدين :

عبد الحميد جودة السحار



أبو بكر
خليفة الرسول

تأليف
عبد الحميد جودة السحار

الناشر : مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي "الفجالة"

دار مصر للطباعة
٣٧ شارع كامل صدقي

بسم الله الرحمن الرحيم

« وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا »

(قرآن كريم)

١

مات رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ، فاصبح المسلمون بلا حاكمٍ يحكمُهم ؛ وكان فى المدينةِ المهاجرون الَّذين هاجروا مع النبيِّ إلى المدينة لما اشتدَّ اضطهادُ قريشٍ للمسلمين ؛ والأنصار ، وهم سكانُ المدينة ، الَّذين استقبلوا النبيَّ ونصروه على أعدائه .

ودخل علىٌّ بنُ أبى طالب ، والعباسُ عمُّ النبيّ ، وأبو بكرٍ الصِّدّيق دار الرَّسول ، يُغسِّلونَ النبيَّ قبلَ دفنِه ، وهم من المهاجرين الَّذين هاجروا مع النبيِّ إلى المدينة ، واجتمعَ رجالٌ من الأنصار فى مكان له سقفٌ من الخشب يُسَمَّى سقيفةَ بنى ساعِدَة وراحوا يتحدَّثون فى انتخاب حاكمٍ للمسلمين .

وجاء رجلٌ إلى مسجدِ الرَّسول ، فلمَّا وجد عمرَ بنَ الخطّاب واقفا هناك قال له :

— اجتمعَ الأنصارُ فى سقيفةِ بنى ساعِدَة لمُبايعَةِ سعدِ بنِ عُبادَة خليفةً لرَسول الله .

فأرسلَ عُمَرُ إلى أبى بكرٍ الصِّدّيق ، وقال له :

— اُخرجْ إلينا .

فلما خرج أبو بكر ، قال له عُمَر :

— أما علِمتَ أنَّ الأنصارَ قد اجتمعتْ فى سقيفةِ بنى ساعِدَة ، يُريدونَ أن يُوَلُّوا هذا الأمرَ سعدَ بنَ عُبادَة ؟

فذهب أبو بكرٍ وعمَرُ وأبو عُبيدةَ بنُ الجرّاح ، إلى سقيفةِ بنى ساعِدَة ، وبقِىَ علىٌّ والعبّاسُ وبعضُ بنى هاشم ، وهم أقاربُ النبيّ ، يشتغِلون بإعداد جَهازِ النَّبيّ ، وأحسَّ العباسُ أنَّ فى الأمرِ شيئا ،

وأنَّ النـاسَ يفـكِّرون فيمن يَخْلفُ رسولَ الله ، فالتفتَ إلى عليٍّ وقال :

– امدُدْ يدَكَ أبايِعْك (أى أَختارُك خليفةً لرسولِ الله) فيقولُ النّاس : عَمُّ رسولِ الله بايعَ ابنَ عمِّ رسـول الله صلى الله عليهِ وسلَّم ، فلا يختلفُ عليكَ اثنان .

فقال عليٌّ فى ثقة :

– أو يَطْمَعُ يا عمُّ فيها طامعٌ غيرى ؟

– ستعلَم .

٢

اجتمع الأنصارُ فى سقيفةِ بنى ساعدة وقالوا :

– نُولِّى هـذا الأمرَ بعدَ محمَّدٍ عليه السّلامُ سعدَ بنَ عُبادَة .

وجاءوا بسعدِ بنِ عُبادَة ، وكان مريضا ؛ فلما اجتمعَ بهم ، قال لابنه :

– إنى لا أقدِرُ لِشكواى (أى لمرضِى) أن أُسْمِعَ القومَ كلامى ، ولكن تلقَّ منّى قولى فأسْمِعْهُموه .

وراح يتكلَّمُ ويحفظ ابنُه قولَه ، فيرفعُ صوتَه ليسمَعَ أصحابه :

– يا معشَرَ الأنصار ، لكم سابقةٌ فى الدّين ، وفضيلةٌ فى الإسلام ، ليستْ لقبيلةٍ من العرب ، أنَّ محمَّدًا عليه السَّلامُ لبِثَ بضعَ عشرةَ سنةً فى قومِه ، يدعوهُم إلى عبادةِ الرحمن ، فما آمنَ به من قومِهِ إلاَّ رجالٌ قليل ، وما كانوا يقدِرونَ على أن يَمنعوا (يحمُوا) رسولَ الله ، ولا أن يُعِزُّوا دينَه ، ولا أن يدفعوا عن أنفسِهم ضَيْمًا (ظلما) ، حتَّى

إذا أراد بكُمُ الفضيلة ، ساق إليكُمُ الكرامة وخصَّكم بالنِّعمَة ، فرزقكُمُ اللّهُ الإيمانَ به وبرسوله ، والمنعَ له ولأصحابه ، والجهادَ لأعدائه ، حتى استقامت العربُ لأمرِ الله طَوْعًا وكَرْهًا ؛ استبَدّوا بهذا الأمرِ .

وجاء أبو بكرٍ وعمرُ وأبو عبيدةَ بنُ الجرَّاحِ إلى السَّقيفَة ، فلما رآهمُ الأنصار ، قام رجلٌ منهم وقال :

– نحن أنصارُ اللهِ وكتيبةُ الإسلام ، وأنتم يا معشرَ المهاجرينَ رَهْط نبيِّنا (قومُه وقبيلتُه) ، وقد ظهر أنكم تُريدون أن تَتَولَّوا الأمرَ دونَنا . إنَّنا أحقُّ بهذا الأمرِ منكم .

فقال أبو بكرٍ الصِّدّيق :

– خَصَّ اللّهُ المهاجرينَ الأوَّلينَ من قومِ الرَّسولِ بتصديقِه والإيمانِ به ، والصَّبرِ معه على شدَّة

أذَى قومِهم ، فهم أوَّلُ من عَبَد اللّهَ في الأرض ، وآمَنَ باللهِ وبالرَّسول ، وهم أولِياؤُه وعشيرَتُه ، وأحقُّ النَّاس بهذا الأمرِ من بعدِه ، ولا يُنازِعُهم ذلك إلاّ ظالم ، وأنتُم يا معشرَ الأنصارِ مَنْ لا يُنكرُ فضلُهم في الدِّين ، ولا سابقَتُهم العظيمةُ في الإسلام ، رضِيَكم الله أنصارًا لدينِه ورسوله ، وجعل إليكم هجرتَه ، فليسَ بعد المهاجرينَ الأوَّلينَ عندنا أحد بمنزلتِكم ، فنحنُ الأمراءُ وأنتُم الوُزراء ، لا تُقضَى دونَكمُ الأمور .

فقال الأنصار :

– منا أميرٌ ومنكم أمير .

فقال عمرُ بنُ الخطّاب :

– واللّه لا ترضى العربُ أنْ يؤمِّروكم (أي يجعلوا الحاكم منكم) ونبيُّها من غيرِكم ، ولكنَّ

العرَب لا تمنعُ أن تُوَلِّيَ أمرَها من كانتِ النبُوَّةُ فيهم ، ووَلِيُّ أمورِهِمْ منهم ، ولنا بذلك عَلَى منْ أَبَى من العرب الحُجَّةُ الظّاهِرة .

فأَبَى بعضُ الأنصارِ ، فقال لهم أبو عُبَيدةَ بنُ الجرّاحِ :

– يا معشرَ الأنصار ، إنكم أوّلُ من نَصَر وآزر ، فلا تكونوا أوّلَ من بَدَّلَ وغيَّر .

فقال أحدُ عقلاء الأنصار :

– يا معشرَ الأنصار ، إنّا واللهِ لئنْ كنّا أولى فضيلةٍ فى جهادِ المُشركين ، وسابقةٍ فى هذا الدِّين ، ما أردْنا به إلاّ رِضَى ربِّنا ، وطاعةَ نبيِّنا ، فلا ينبغى لنا أنْ نستطيلَ على النّاسِ بذلك (أن نتحكّم فى النّاس) ، أَلا إنَّ مُحَمّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ من قُرَيش ، وقومُه أَحقُّ به وأَوْلى ، وايْمُ اللهِ

لا يرانى اللهُ أنازعُهم هذا الأمرَ أَبدا ، فاتَّقوا اللهَ ولاَ تخالِفوهم ، ولا تنازِعوهم .

فقال أبو بكر :

– هذا عُمَر ، وهذا أبو عُبَيدة ، فأيَّهما شئتُم فبايعوا .

فقال عُمَرُ وأبو عبيدة :

– لا واللهِ لا نَتولَّى هذا الأمر عليك ، فإنَّك أفضلُ المهاجرين ، وثانى اثنين إذْ هُما فى الغار ، وخليفةُ رسولِ اللهِ على الصَّلاة ، والصلاةُ أفضلُ دينِ المُسلمين ، فمَن ذا ينبغى له أن يتقدَّمك ، أو يتولَّى هذا الأمرَ عليك ، اُبسُط يدَكَ نبايعْك .

وبايع عُمَرُ وأبو عبيدةَ أبا بكرٍ الصِّدِّيق ، وقام الأنصارُ وبايعوا أبا بكر .

٣

ذهب أبو بكرٍ وعُمَرُ إلى المسجد ، فالتفتَ عمرُ إلى أَبي بكرٍ وقال له :

– اصعَدِ المِنبَر .

فلم يزلْ به حتى صعِدَ المِنبر وجلس ، وقام عَمَرُ وقال :

– إنّ اللهَ قد أَبْقَى فيكم كتابَه الّذى هَدَى به رسولَ الله ، فإِنِ اعتصمتُم به هداكُم اللهُ لما كان هداهُ اللهُ له ، وإنَّ اللهَ قد جمع أمرَكم على خيرِكم ، صاحب رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ، وثانى اثنينِ إذهما فى الغار ، فقوموا فبايعوه .

فتقدَّم الناسُ يبايعونَ أبا بكر البَيْعةَ العامّة ، بعد بَيْعةِ السَّقيفَة . ولما انتهى النّاسَ من ذلك ، قام أبو بكر وقال :

– أيُّها الناس ، إنى قد وُلِّيتُ عليكُم ولستُ بخيرِكم ، فإن أحسنتُ فأعينونى ، وإن أسأتُ فقوِّمونى . الصِّدقُ أمانة ، والكَذِبُ خيانَة . والضَّعيفُ منكم قوىٌّ عندى حتى أُرْجِعَ عليه حقَّه إن شاءَ الله ، والقَوِىُّ فيكم ضعيف حتَّى آخُذَ منه الحقَّ إن شاءَ الله ، لا يدَعُ قومٌ الجهاد فى سبيلِ الله إلا ضربَهُم اللهُ بالذُّل ، ولا يَشيعُ فى قومٍ قطُّ الفاحشةُ إلا عمَّهُمُ الله بالبلاء ، أطيعونِى ما أطعتُ الله ورسولَه ، فإن عصيتُ اللهَ ورسولَه ، فلا طاعة لى عليكُم . قوموا إلى صلاتِكم يرحمُكم الله .

بايعَ النّاسُ أبا بكرٍ الصِّدِّيقَ خليفةً لرسولِ الله ، إلاّ علىٌّ ابنَ أبى طالبٍ وبعضَ أصحابه ، فقد امتنعُوا عن البَيْعة .

أقبلَ اللَّيل ، واجتمعَ أنصارُ عليٍّ فى الفضاء المُجاور للمسجد ، وقال رجلٌ منهم :

– إنَّ عليًّا أحقُّ النّاسِ بالخِلافة ، فعلينا أن نُعيدَ الأمرَ شورَى بينَ المهاجرين ، وأن ننقُضَ بيْعة السَّقيفة (أى نهدِم البيْعة) .

فسأل أحدُهم :

– وكيف ذلك ؟

فقال قائل :

– زَعموا لِلأنصار أنَّهم أَوْلَى بهذا الأمرِ منهُم ، لمَّا كان محَمَّدٌ منهم ، فأعطوْهُمُ المَقادَة ، وسلَّموا إليهمُ الإمارَة ، فإذن نحتَجُّ عليهم بمثلِ ما احتَجُّوا به على الأنصار . عليٌّ أولَى برسولِ اللهِ حيًّا وميِّتا .

كان عليُّ بنُ أبى طالب ، ابنَ عمِّ النّبيِّ ، وزوجَ

ابنتهِ فاطمة ، فإذا كان الأنصارُ قد قبِلوا أن يُولّوا أبا بكرٍ لأنَّه من قبيلةِ الرَّسول ، فإنَّ عليًّا أقربُ إلى الرَّسولِ من الصَّحابةِ الآخرين .. ورأى أصحابُ عليٍّ أن يدخُلوا بيتَ فاطمة ، وأن يرفُضوا توْلِيَةَ أبى بكرٍ خليفةً للرَّسول .

وظل عليٌّ وأصحابُه فى بيتِ فاطمة ، وجاء رجلٌ من أنصارِه وقال له :

– فواللهِ مافى النّاس أحدٌ أوْلَى بمقامِ محَمَّدٍ منك .

وبلغ أبا بكرٍ وعُمرَ خبَرُ اجتماعِ عليٍّ وأصحابِه بدارِ فاطمة ، فنهض عُمرُ فى جماعةٍ من المسلمين ، واتَّجه إلى دار فاطمة ، وقال :

– يا عليّ ، اخرجْ فبايعْ كما بايع النّاس .

ورفض عليٌّ أن يَخْرجَ ليبايِعَ أبا بكرٍ خليفةً للمسلمين .

وجاء أبو سُفيان ، وهو من القُرَشِيِّين ، ولكنَّه كانَ من أعداء الرَّسولِ قبل أن يُسلِمَ يوم فتح مكة ، وقال لعليّ :

- اُبسُطْ يدَكَ أبايِعْك ، فَو الله لو شئتَ لأملأنَّها على أبي بكرٍ خَيْلا ورجْلا .

كان يُحَرِّضُ عليًّا على محاربةِ أبي بكر ، وكان يُغْرِيه أن يُمِدَّه بالخيلِ والرِّجال ، ولكنَّ عليًّا ما كان يقبلُ أن يكونَ أوَّلَ من يفرِّق جمع المسلمين ، فقال لأبي سُفيان :

- طالما غششْتَ الإسلام وأهله ، فما ضرزْتَهم شيئا ، لا حاجة لنا إلى خيلِك ورَجْلِك .

٥

ارتفع صوتُ المؤذِّن :

اللهُ أكبَر اللهُ أكبَر

اللهُ أكبَر اللهُ أكبَر

أَشْهَدُ أَن لاَ إِلَهَ إلاَّ الله

أَشْهَدُ أَن لاَ إِلَهَ إلاَّ الله

أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله

أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله

فأطرق عليٌّ يفكِّر ، فعرف أنَّه إذا خاصَمَ أبا بكر ، فسيتفرَّقُ المسلمون ويضعُفوا ، وقد يَقْضِي ذلك على الإسلام ، ثم رفع رأْسَه وقال لزوجتِه فاطمةَ بنتِ محمَّدٍ رسول الله :

- أَتُحِبِّينَ أن يزولَ هذا النِّداءُ من الوُجود ؟

قالتْ له زوجتُه:

- لا .

قال لها :

- إذَنْ سأُبايِعُ أبا بكر .

وخرج عليٌّ ليُبايعَ أبا بكر ، حتى يُحافظَ على وَحْدة المسلمين ، وذهبَ إلى المسجِد . وبايعَ أبا بكر ، ففرِحَ النَّاس بذلك ، وقال أبو بكر :

- واللّه ما كنتُ حريصًا على الإمارةِ يومًا ولا ليلة ، ولا سألتُها اللّهَ فى سِرٍّ ولا علانِيةَ .

واتفقتْ كلمةُ المسلمين، وأصبح أبو بكر الصِّدِّيقُ خليفةَ الرَّسول .



أبو بكر يقاتل مانعي الزكاة

تأليف

عبد الحميد جودة السحار

الناشر : مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي "الفجالة"

دار مصر للطباعة

٣٧ شارع كامل صدقي

بسم الله الرحمن الرحيم

« خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُم
وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا » (قرآن كريم)

١

كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ، يرى تَوْطيدَ سُلطانِ المُسلمينَ على حُدودِ الشّام ، فقد بلغَه تفكيرُ الرُّوم الَّذينَ كانوا يحكُمون الشّام ، في مهاجمةِ المُسلمين ، وقد أرْسلَ لِقتالِهم جيشاً بِقيادَةِ زيدِ بنِ حارثَة ، وقُتِلَ قُوّادُ هذا الجَيْش ، فخرجَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لِقتالِ الرُّوم ، وسارَ حتَّى بلغَ تَبُوكَ ، ولكنَّ الرُّومَ لم يقابِلوه ، بَلِ انسحبوا إلى داخِلِ بلادِهم ، فلَمَّا أتمَّ النَّبيُّ حجَّةَ الوَداع ، أمر بتجهيزِ جيشٍ للخُروجِ إلى الشّام ، وأمَّر على الجَيشِ أُسامةَ بنَ زيد .

كان أُسامَةُ في العشرينَ من عمرِه ، وكان في جيشِهِ أبو بكرٍ وعمرُ وكبارُ الصَّحابَة ، وقبل أَن

يسيرَ جيشُ أُسامَة ، مات رسولُ الله ، وأصبحَ أبو بكرٍ خليفةَ رسولِ الله ، فدخل النَّاسُ عليه ، وقالوا له :

– إنَّ الأمورَ قد تبدَّلَتْ بعدَ موتِ الرَّسول ، ولا يعلمُ أَحدٌ ما يستجدُّ من الأُمورِ إذا بلغ القبائلَ خبرُ موتِ محمَّد .

فقال أبو بكر :

– والَّذى نفسُ أَبى بكرٍ بيدِه ، لو ظننْتُ أَن السِّباعَ تَخْطِفُنى ، لأنفذتُ بعثَ أُسامَة ، كما أمر به رسولُ الله ، ولو لمْ يبْقَ فى القُرى غيرى لأنفذْتُها .

وقال أُسامةُ لِعُمَرَ :

– ارْجِعْ إِلَى خليفةِ رسولِ الله ، فاستأْذِنْه لى أَن أَرجِعَ بالنَّاس ، فإنَّ مَعِى وجوهَ النَّاسِ وحدَهم ، ولا آمنُ على خليفةِ رسولِ اللهِ وعلى

المسلمينَ أن يتخطَّفَهمُ المشرِكون .

وسار عُمَرُ ليدخُلَ على أبى بكر ، فجاءَهُ الأنصارُ وقالوا له :

- إنْ أبَى إلاَّ أنْ نَمْضى ، فأبلِغه عنا ، واطلبْ إليه ، أن يُوَلِّىَ أمرَنا رجُلاً أقدمَ سِنًّا من أُسامَة.

دخل عُمَرَ على أبى بكرٍ ، وقال له :

- أُسامةُ يستأذِنُ أن يرجِعَ بالنّاس.

فقال أبو بكرٍ فى عَزْم :

- لو خَطِفَتْنِى الكِلابُ والذِّئاب ، لا أردُّ قضاءً قضى به رسولُ الله :

فقال عُمَرُ :

- الأنصارُ يطلُبون أن تُوَلِّىَ رجلاً أقدمَ سِنًّا من أُسامة .

فثارَ أبو بكرٍ وغَضِب ، ووثبَ على عُمَرَ الّذى

كان الناس يخشَوْنَه ، وجذَبه من لِحيَتِه جَذْبةً شديدة ، وصاح فيه : ثَكِلَتْكَ أمُّك وعدِمَتْكَ يا بنَ الخطّاب ، استعمَلَهُ رسولُ الله ، وتأمُرنى أنْ أنزِعَه ؟!

وخرج عمرُ إلى النَّاس ، فأسرعوا إليه يسألونَه :

- ماذا فعلت ؟

فصاح فيهم : امضُوا ثَكِلتْكُم أمَّهاتُكم ، ما أَشَدَّ ما لقيتُ فى سبيلِكم من خليفةِ رسولِ الله .

٢

نُفِخ فى البُوق ، فجاءَ المُسلمونَ ليخرُجُوا فى جيشِ أُسامَة ، وجاءَ عمرُ بنَ الخطَّاب ، فقد كان جُندياً فى هذا الجيش ، وأقبلَ أُسامَة راكباً جوادَه ، وجاءَ أَبوبكرٍ يسيرُ على رجلَيه ، فلمَّا رآهُ أسامةُ ،

همَّ بأنْ ينزلَ عن جوادِه ، فأشارَ لهُ أَبو بكرٍ أن يبقَى فقال أُسامة :

– يا خليفةَ رسولِ الله ، والله لَتَركبَنَّ أَو لَأَنزِلَنَّ .

– واللهِ لا تَنْزِلَنَّ وواللهِ لا أركب، وما علىَّ أَنْ أُغبِّرَ قدمىَّ فى سبيلِ الله ساعة ، فإنَّ للغازى بكلِّ خَطوةٍ يخطوها سَبعَمائةِ حسَنةٍ تُكتبُ له، وسَبعَمائةِ درَجةٍ تُرْفَعُ له، وأن تُرْفَعَ عنه سَبعُمائة خطيئَة .

لقّن أَبو بكرٍ الجنودَ الّذينَ تحتَ إمرةِ أُسامَةَ درسًا فى احترامِ القائد ، وأرادَ أَن يلقِّنَهم درسًا آخرَ فى توقيرِه ، فقال لأُسامة :

– إنْ رأَيت أَن تُعينَنى بعمرَ فافعَلْ .

لم يأمُرْ أبوبكرٍ ببقاءِ عمرَ معه فى المدينة ، وهو الحاكمُ النّاهى ، بل استأْذنَ قائدَ الجيشِ فى بقائِه

معَه ليُعينَه على أمورِ المسلمين، فرسَم لكبارِ الصَّحابةِ طريقةَ مُعاملةِ قائدِهم ، وإنْ كان فى العشرينَ من عمرِه، علَّمهم أن يحترِموه، وأنْ لا يستخِفَّ به أحد .

أشار أُسامةُ بيَدِه لعمرَ بنِ الخطَّاب ، فخرج من بينِ الصُّفُوف . وأشارَ أبو بكرٍ لجيشِ أُسامةَ بيده ، وقال :

– اندَفعوا باسمِ الله .

وخرج جيشُ أُسامةَ قاصِدًا الشّام .

٣

فرَض الإسلامُ على المسلمينَ الزَّكاة ، وكان النّبىُّ يُرسلُ رجالاً يجمعونَها من القَبائل ، فكانتِ القبائل ، تدفعُ لهُم الزَّكاة ، فتُحْملُ إلى المدينة ، ويقومُ النَّبىُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ بتوزيعِها على الفقراءِ والمساكين ، ويُعْتَقُ بها العبيد ، ويُنفَق منها

على الدَّولة . فلما ماتَ رسولُ اللّه ، جاءتْ وفودُ القبائلِ إلى المدينة ، وعرضوا على أبِى بكرٍ أنْ يُصَلّوا ، وأن لا يدفعوا الزَّكاة ، فرفض أبو بكرٍ هذا العَرْض ، لأنَّ الزَّكاةَ ركنٌ من أركانِ الدِّين ، وعزم على أنْ يقاتلَهم حتى يؤدّوا الزَّكاة ، فقال له عمر :

– كيفَ تقاتلُ النّاس ، وقد قالَ رسولُ اللّه صلَّى اللّهُ عليه وسلَّم : « أُمرتُ أن أقاتلَ النّاسَ حتى يقولوا : لا إلهَ إلاّ اللّه ، فمَنْ قالَها ، فقد عصَم منّى ماله ونفسَه ، إلاّ بحقِّه وحسابه على اللّه » .

طلب عمرُ منه أن يتركهم وما همْ عليه من منعِ الزَّكاة ، ويحبِّبَهم فى الإسلام ، ثمَّ هم بعدَ ذلك يُزكون ، فقال له أبو بكر :

– أجبّارٌ فى الجاهليّة ، خوّارٌ (ضعيف) فى

الإسلام ؟ إنه قد انقطع الوَحْىُ وتمَّ الدّين ، أوَ ينقُصُ وأنا حىّ ؟ واللّه لأُقاتلَنَّ من فرَّق بينَ الصَّلاةِ والزَّكاة ، فإنَّ الزكاةَ حقُّ المال ، واللّه لو منعونى عناقاً (عَنْزا) كانوا يُؤدّونَها إلى رسولِ اللّه صلَّى اللّه عليه وسلَّم ، لقاتلتهم على منعِها.

وعادتِ الوُفودُ إلى قبائلِها ، وقد بانَ الغدْر فى الوجوه ، فجمع أبو بكرٍ كبارَ الصَّحابَةِ ، وقال لهم :

– إنَّ الأرضَ كافرة ، وقد رأى وفدُهم قلَّة ، (بعد خروجِ جيشِ أسامَة) ، وإنَّكم لا تدرونَ أليْلاً تُؤْتَوْنَ (أى تُغْزَوْنَ) أو نهارا ، وقد كان القومُ يأمُلونَ أن تقبَلَ منهم ونوادِعَهم ، وقد أبيْنا عليهم ، فاستَعِدُّوا وأَعِدُّوا .

ولبسَ المُسْلمونَ عُدَّةَ القِتال واستعَدُّوا للدِّفاعِ عن المدينَة ، وخرج علىُّ بنُ أبى طالب ، والزُّبيرُ

ابنُ العوّام ، وسعدُ بنُ أَبِى وقّاص ، ونفرٌ من المُسلمين لحمايةِ مشارفِ المدينة ، وبَقِىَ سَائِرُ المُسلمينَ مُدجَّجين بالسِّلاح ، على استعدادٍ للقِتال ، إذا ما فكَّر أَحدٌ فى مداهمتِهم .

وتحرَّكتِ القبائلُ المجاورةُ قاصدةً المدينة ، وبلغ الخبرُ أَبا بكر ، فخرج بالمسلمين ، ليدافعَ عن دينِ الله ، رأَى أَنْ يهْجُم على العدُوِّ فى اللَّيل ، قبل أَن يهْجُم عليه العَدُوُّ بالنَّهار ، فسارَ فى اللَّيل ، حتَّى بلغ مُعسْكرَ الأعداء ، وانقضَّ المسلمونَ على أَعدائهم ، وراحوا يُعمِلونَ السُّيوفَ فيهم ، حتَّى هَربوا ، فسارَ المسلمونَ وراءَهم .

كان الأعداءُ قد تركوا مَدَدًا من الرِّجالِ خلفَهم ، فانضمَّ المدَدُ إلى الهاربين ، ووقَفُوا فى وجهِ المسلمين ، ودار القتالُ شديدًا رهيبًا فى اللَّيل .

وأحسَّ المسلمون رواحلَهم تتقهقرُ مرعوبَة ، وظَلَّتْ تتقهقر ، فقد جاء الأعداءُ باوعيةٍ من جلودٍ نفخوها وربطوها بالحِبال ، وضربوها بأرجلِهم فى وجوهِ إبل المسلمين ، فخافتِ الإبل ، واستمرتْ فى تقهقرِها حتى دخلتِ المدينة .

ونامَ الأعداءُ تلكَ اللَّيلة ؛ حسَبوا أنهم انتصروا على المُسلمين ، ولكنَّ المسلمينَ لم يذوقوا للنَّومِ طعما ، وراحَ أبو بكرٍ يستعِدُّ لمعاوَدَةِ الهجُوم قبلَ أن تطلُع الشَّمس . وسار أبو بكرٍ مرَّةً ثانيةً إلى الأعداء قبل الفجر ، فرآهم نائمين ، فهجم المسلمونَ عليهم ، وراحوا يقْتُلونَهم ، فقَاموا من نومِهم خائفين ، وهربوا مرعوبينَ مهزومين .

وانتصر أبو بكرٍ على الَّذين جاءوا يُرغمونه على أن يقبلَ مبدأ عدمِ دفع الزَّكاة ، فخافتِ

القبائلُ منه ، وجاءَ المسلمون من مختلفِ القبائل إلى المدينةِ يحملونَ الزَّكاة ، وعاد جيشُ أسامةَ إلى المدينة ، فقوىَ المسلمونَ به ، وكانتْ بعضُ القبائلِ قد تركَتِ الإسلامَ بعد موتِ النَّبيّ ، وكانَ بعضُ الكذَّابينَ قد ادَّعوا النُّبوَّة ، فرأى أبو بكرٍ محاربةَ الَّذين ارتدُّوا ، فكوَّنَ أحَدَ عشَرَ جيْشا لقتالِهم ، وخرجَتِ الجيُوشُ لقتالِ مدَّعى النُّبوَّة وأتباعِهم ، لرفعِ الرَّاية الإسلاميَّةِ على بلادِ العربِ جميعِها ، كما كانتْ مرفوعةً موفورةَ الكرامة ، قبلَ موتِ الرَّسول .

٤

ادَّعى مُسَيلمةُ النّبوَّة ، فلم يصدِّقْه من قومِه خلقٌ كثير ، فقد كان ضئيلَ الجسم ، أصفرَ اللَّون ، لا هيبةَ له ، ولا يبعثُ مظهرُهُ على الاحترام ،

وقد ادَّعى النُّبوَّة فى أيَّام النَّبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم ، فبعث النَّبيُّ إلى أهلِ اليمامة - قومِ مُسيلمَةَ - من يعلِّمُهم دينَهم ، وكان هذا الرَّجلُ الَّذى أرسله محمدٌ هو « نهارُ الرَّجال » .

رأى نهارُ الرَّجال أنْ يخونَ الأمانة ، وأن ينضمَّ إلى مُسيلمَة ، وأن يتَّفِقَ معه ، فهو بهذا يستطيعُ أن يكسِبَ الدُّنيا ، وإنْ خسِرَ الآخرة ، فانضمَّ إلى مُسيلمَة ، وقال للنّاس :

- إنَّ محمَّدًا يقولُ : إنَّ مُسيلمَة قد اشتركَ فى الرِّسالة .

وصدَّق أهلُ اليمامةَ « نهارًا الرَّجال » وكان سُرورُهم عظيما ، فمنهم نبِيٌّ ومن قريشٍ نبِيّ ، ولم يفطُنوا إلى أنّ مُسيلمَةَ كذّاب ، وأن « نهارًا الرِّجال » خائنٌ باع آخرتَه بدُنياه .

ومات النبيُّ صلَّى الله عليه وسلّم ، فأرسلَ أبو بكرٍ إلى مُسيلمَةَ جيشا ، بقيادةِ عِكْرِمةَ بنِ أبي جهْل ، ولكن عكرِمَةَ هُزِمَ ، فأرسلَ أبو بكرٍ جيشاً آخرَ بقيادةِ خالدِ بن الوليد ، قائدِ الإسلامِ الأوّل ، وسيفِ اللهِ المسلول .

سار جيشُ خالد ، حتَّى وقفَ جيشُ خالدٍ وجيشُ مُسيلمَةَ وجهاً لوجه ، وقد امتلأتِ الصُّدورُ حماسة ، فالمسلمون يُدافعونَ عن دينِهم ، وأهلُ اليمامةِ عن نبيِّهم الكذّاب ، ودارتْ رحَى المعرَكة رهيبة ، فلم يثبُتِ المسلمونَ وتقهقَروا ، وساءَ بعضَ ذوى الهِممِ العاليةِ أن ينهزِمَ المسلمون ، فعزَموا أن يثْبتُوا فى الميْدان ، حتى يحكُمَ الله بينَهم وبينَ الفَجَرةِ المُرتدّين ، وثارَتِ الْحَمِيَّةُ فيهم ، فانطلقَ زيدُ بنُ الخطّاب إلى نَهارِ الرَّجّال ، وعاجله بضربةٍ فقتلَه

وشدَّد المسلمونَ التّكبير ، وراحَ أتباعُ مسيلمةَ يَسقطونَ حولَه قتلَى ، فرأَى خالدٌ أن يسيرَ إلى مُسيلمةَ ليقتُلَه فتنتهى المعرَكة ، فهجم عليه وهوَ يصيح : « وامُحمَّداه » ! وما بلغ صوتُه آذانَ المسلمينَ حتى فارَتِ الدِّماءُ فى عروقِهم ، وأخذوا يُطيحونَ رُءوس المخدوعينَ فى نبيِّهم ، ورأَى مُسيلمة ضغطَ المسلمينَ عليه ، وطلبَ خالدٍ له ، فدبَّ الذُّعرُ فى نفسِه وفرّ ، وفرَّ من كانَ حولَه .

وصاح صائح : « إلَى الحديقَة ... إلَى الحديقَة » . فدخل القومُ حديقةً كانتْ لمسيلمَة ، وكانتْ واسعةَ الأرجاء ، منيعةَ الجدران ، كأنَّها الحِصن ، وأُغلِق بابُ الحديقَة ، فراحَ المسلمونَ يتسلّقونَ الجدران ، ويقاتلونَ الأعداءَ ، حتى فتحوا بابَ الحديقَة ، فتدفَّق المسلمونَ منه كالبحر ،

وقُتِلَ مُسيلمَة ، وقُتِل معه خلقٌ كثير .

وانتصرَ خالدُ بنُ الوليدِ على مُسيلمَة الكذَّاب ، وانتصرَتْ جيوشُ المسلمين ، وعادتْ إلى المدينَة ، فاستقبلَها أبو بكرٍ مسرورا ، فقد أعادَ للإسلام هَيْبَتَه ، وأقام دعائمه ، وأرغمَ القبائلَ على أنْ تُؤَدِّيَ الزَّكاَة ، واستعدَّ أَبو بكرٍ ليُرسِل الجيُوشَ لنشرِ دينِ الله ، وإقامَةِ أركانِه . وتوطيدِ بُنيانِه .

الحلقة الثالثة
قصص الخلفاء الراشدين

القصص الديني

أبو بكر وخالد بن الوليد

تأليف
عبد الحميد جودة السحار

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَأَيُّهَا الّذِين آمنُوا قَاتِلوا الّذينَ يَلُونكم مِنَ الْكُفّار ، وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ، واعْلَمُوا أَنّ اللّهَ معَ الْمُتّقِين ﴾ .

(قرآن كريم)

١

أمر أبو بكرٍ الصّدِّيقُ خَالدَ بنَ الوليد ، أن يسيرَ إلى العراق ، وأن يتألّفَ النّاس ، ويدعُوَهم إلى الإسلام ، فإنْ أجابوا كان لهم ما للمسلمين ، وإلاّ أخذ منهمُ الْجزْية ، وهى مبلغٌ معيَّنٌ من المال يدفعهُ القادرون للمسلمين ليَحْموهم ، ولا يُؤذوهم . ولا ظُلمَ فى ذلك ، المسلمونَ يدفعونَ الزّكاة ، والّذين يبقونَ على دينهم يدفعونَ الْجزْية ، وبذلك يتساوى الفريقان ، اللّذان يعيشانِ فى دَوْلةٍ واحدة .

وسار خالدٌ بجيشِهِ حتى إذا بلغ الحِيرَة ، خرج إليه

أشرافُها ، فقال لهم :

ـ أَدعوكُم إلى اللّه وإلى الإسلام ، فإن أجبتُم إليه فأنتُم من المسلمين ، لكم ما لَهم ، وعليكم ما عليهِم ، فإن أبيتُم فالجزْية ، فإن أبيتُم فقد أتيتُكم بأقوامٍ أحرصُ على الموتِ منكم على الحياة ، وجاهدناكم حتى يحكمَ اللّهُ بيننا وبينَكم .

والتفت خالدٌ إلى أحدِهم ، ليسأله من أين جاء ، وعلى أيِّ دينٍ هو ، قال :

ـ من أينَ خرجت ؟

فقال الرجلُ فى خبث :

ـ من بطنِ أمّى .

قال خالد :

ـ ويْحك ، على أى شيءٍ أنت ؟

ـ على الأرض .

ـ ويحَك ، وفى أيِّ شيءٍ أنت ؟

ـ فى ثيابى .

فضاق خالدٌ بخبثه وقال له :

ـ تعقِل ؟

ـ نعم .

ـ إنما أسألُك ؟

ـ وأنا أجيبُك .

ـ أسلِمٌ أنت أم حرب ؟

ـ بل سِلْم .

ـ فما هذه الحصونُ الّتى أرى ؟

ـ بنيناها للسّفيه نحبِسُه ، حتّى يجيءَ الحليمُ فينهاه .

وتشاور أشرافُ القوم ، ثمَّ قالوا لخالد :

ـ ما لنا بحربِك من حاجة ، بل نُقيم على ديننا ونُعطيك الجِزية .

وصالحهم خالدٌ على تسعينَ ألفَ دِرْهم ، وَحُمِلَتِ الْجِزْيَةُ إلى المدينة ، ليُنْفِقَها أبو بكرٍ على المسلمين .

٢

جمع هُرْمِز ، نائبُ كِسْرَى ملكِ الفُرْس ، الّذى كان يحكمُ العراق ، جُموعاً كثيرة ، وسارَ ليُقاتلَ المسلمينَ الّذين جاءوا يَغْزون البلاد ، ونزل هُرْمِزُ ومن معه عند الماء ، ونزل خالدٌ والمسلمون تجاهَهم على غير ماء ، شكا أصحابُ خالدٍ ذلك ، فقال لهم خالد :

ـ جالِدوهمُ (قاتِلوهم) حتى تُجلُوهم عن الماء ، فإنَّ اللّهَ جاعلٌ الماءَ لأصْبرِ الطائفتين .

وتقدَّم هُرْمِزُ على حِصانِه ، وعلى رأسِه قَلَنْسُوَةٌ مُزدانةٌ بالجوهر ، كانتْ تُقَدَّرُ بمائةِ ألفِ دِرْهم ـ ثمَّ نزل عن حصانِه وقال :

ـ هل من مُبارز ؟

فتقدَّم خالدٌ ، سيفُ اللّهِ المسلولُ لقتالِه . فضرب هُرْمِزُ خالداً ضربة ، اتّقاها بدِرْعِه ، ثمَّ هجمَ على هُرْمِزَ واحْتضَنه ، فلمَّا رأتْ حامِيةُ هُرْمِزَ أنَّ خالداً سيقتُله ،

أرادتْ أن تهجُمَ على خالد ، لتُخلِّصَه من يدِهِ ، ولكنَّ خالداً لم يلتفتْ إليهم بل قتلَه ، وهجم المسلمون على الحاميةِ وقتلوها .

وبدأ القتالُ بين المسلمينَ والفُرْس ، فأخذ المسلمونَ يقتُلون أعداءَهم ، الّذين كانوا مقيَّدينَ بعضُهم إلى بعضٍ بالسَّلاسل ، حتى لا يفِرُّوا ، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً ، وانهزم الفرسُ وفرّوا .

فراح خالدٌ ومن معه يجمعونَ ما تركه الفارّون ، وكان شيئاً كثيرا ، وقد أخذوا فيما أخذوا فيلا كان الفُرْسُ يستعملونَهُ فى القتال .

وقسَّم خالدٌ الغنائم ، وأرسل إلى أبى بكرٍ فى المدينةِ خُمْسَها ، ووزَّع الباقىَ على الجنود ، وقد كان فى الْخُمْسِ قَلَنْسوةُ هُرْمِزِ التى تتألّقُ بالجوْهر .

عاد رسولُ خالدٍ إلى المدينة ، يحملُ خُمْسَ الغنائم ، وكان معه الفيلُ الّذِى استولى عليه المسلمون ، فلمّا دخل المدينة ، خرج النّسوةُ يَنْظُرْن إلى الفيل ، وجعلنَ يقُلْن :

ـ أمن خلقِ اللّه هذا أم شىءٌ مصنوع ؟

وأعاد أبو بكرٍ الفيل ، وأعطى خالدًا قَلَنْسُوَةَ هُرمِز ، وضمَّ ما جاء به رسولُ خالدٍ إلى بيتِ مالِ المسلمين .

٣

وسار خالدٌ فى طريقِه يفتحُ البلاد ، ويدُكُّ الحصون ، وما كان يتعرَّض للفلاّحين ، بل كان يتركهُم فى أراضيهم يزرعون . وبلغ أرْدَشير ملكَ الفرس ما يفعلُه خالد ،فأرسل إليه جيشاً كبيرًا ليُحاربَه ، فتقابل جيشُ المسلمين وجيشُ الفُرْس ، وكان خالدٌ قد قسَّمَ جيشَه ، وأعدَّ كميناً وراءَ جيشِ الفُرسِ فى موضعين ، فلمَّا دارَ القتالُ واشْتدَّ ، وأخذ الرِّجالُ يسقطونَ صرْعَى تحتَ ضرَباتِ السُّيوف ، وَظنَّ الفريقانِ أنَّ الصبرَ قد نَفِد « فرَغ » ، إذا بالكمينَيْنِ يخرُجانِ من هنا ومن هنا ، ففزِع الأعاجمُ وفرّوا مرعوبين ، ولكنَّ خالدًا هجم عليهم من أمامِهم ، وهجم الكمينانِ من ورائهم ، وراح

المسلمون يقتُلونَ الفُرْسَ قتلاً ذريعا ، وانتصروا عليهم ، وغنِموا غنائمَ كثيرة . ولما كانت بلادُ العربِ بلاداً مجدبة ، لا زرعَ فيها ولا ماء ، ولمّا كانتِ البلادُ التى يستولونَ عليها بلادًا خِصْبَة ، قام خالدٌ فى جيشهِ وخطب ، فقال :

ـ ألا ترَوْنَ ما ها هنا من الأطعِمات ؟ وباللّه لو لم يلزمْنا الجهادُ فى سبيل اللّه والدُّعاءُ إلى الإسلام ، ولم يكنْ إلاّ المعاش ، لكان الرأىُ أنْ نقاتلَ على هذا الرّيف ، حتى نكونَ أولى به .

٤

رجع أبو بكرٍ الصّدّيقُ من الحجّ ، فجمع الجنودَ ليُرسِلَهم إلى الشام ، فلما اجتمع الناس ؛ أرسل جيشًا بقيادةِ خالدِ بن سعيدِ بن العاص ، ثمَّ أرسلَ جيشًا بقيادةِ يزيدِ ابن أبى سُفيان وجعل وِجْهَتهَ دِمَشق ، وأرسل جيشاً ثالثاً بقيادة أبى عبيدة ابنِ الجرّاح ، وجعل وِجْهَتَهُ حِمْص ، وأرسلَ جيشاً رابعاً بقيادَةِ عمرِو بن العاص ، وجعل وِجهتَه فِلَسطِين .

سارتْ هذه الجيوشُ إلى الشّام ، فأفزع ذلك الروم ، وخافوا خوفاً شديداً ، وكتبوا إلى هِرقْلَ قَيْصَرِ الرّوم ، يُعلمونَه بما كان من الأمر ، فلمّا انتهى إليه الخَبَر . وكان بِحْمص ، قال لمن عندَه :

ـ وَيْحَكم ، إنَّ هؤلاءِ أهلُ دينٍ جديد ، وأنّهم لا قِبلَ لأحدٍ بهم ، فأطيعونى وصالِحوهم بما تصالحونَهم على نصفِ خراجِ الشّام ، ويبقى لكم جبالُ الرّوم . وإن أنتم أبيتُم ذلك أخذوا منكُم الشّام ، وضيَّقوا عليكم جبالَ الرّوم .

فلم يُعجبِ النّاسَ هذا الرَّأى ، فكيف يُصالحونَ العربَ وهم أهلُ الإمبراطوريَّة العظيمة ، التى هزمَتِ الفُرْس ؟ فَعزموا على قتالِ المسلمين .

وأرسل هِرَقْلُ الجيوشَ لملاقاةِ جُيُوشِ المسلمين ، فلمَّا رأى المسلمونَ جيوشَ الرّوم ، أرسلوا إلى أبى بكر يُخبرونَه ، فكتب إليهم أبو بكر : « اجتمِعوا وكونوا جُنْدًا واحدا ، والقَوْا جنودَ المُشركين ، فأنتم أنصارُ اللّه ، واللّهُ ناصِرٌ من نصرَه ، وخاذلٌ من كفرَه ، ولن يُؤْتَى مثلكم من قِلّة ، ولكن

مِن تِلْقَاءِ الذُّنوب ، فاحترِسوا منها ، وليُصلِّ كلُّ رجلٍ بأصحابه .

واجتمعتْ جيوشُ المسلمين ، ولما علِمَ هرقْلُ بذلك أمر قُوَّاده أَن يجتمِعوا ، وأن ينزِلوا بالجيشِ أمام جيُوشِ المسلمين ، فالتقى الجيشان عند اليَرْموك ؟ وكان المسلمونَ أربعةً وعشرينَ ألفا ، وعليهم أبو عبيدةَ بنُ الجَرَّاح ، وكان الرُّومُ عشرينَ ومائةَ ألف . ودار القتالُ بين الجيشين رهيبا ، واشتركتْ نساءُ المسلمين فى المعركة ، وقاتلْنَ أشدَّ قتال ، ورأى المسلمونَ أن يطلُبوا من أبى بكرٍ أن يُرسِلَ إليهم مدَدا ، فلما كتبوا له بذلك قال :

ـ واللّه لأَشغلَنَّ الرُّومَ عن وساوِسِ الشّيطان ، بخالد بن الوليد .

كان خالدٌ يحاربُ فى العِراق ، فكتب إليه أبو بكرٍ أن يسيرَ بمن معه إلى الشَّامِ لنجدةِ المسلمين ، فسار خالدٌ مسرِعاً فى تسعةِ آلافٍ وخَمْسِمائة ، حتى بلغ مكانَ المسلمين ، فوجد الجيوشَ متفرِّقَة ، فجيشُ أبى عبيدةَ وعمرِ بنِ العاص ناحية ، وجيشُ يزيدَ وشُرَحْبيلَ ناحية ، فقام خالدٌ فى النّاس

خطيبا ، فأمرَ بالاجتماع ، ونهاهُمْ عن التفرُّقِ والاختلاف ، وقال :

ـ إنَّ هذا يومٌ له ما بعدَه ؛ لو ردَدْناهم اليومَ إلى خندقِهم فلا نزالُ نردُّهم . وإنْ هزمونا لا نُفْلِحُ بعدها أبدا ، فتعالَوْا فلنتعاوَرِ الإمارة . فليكنْ عليها بعضُنا اليَوْم ، والآخرُ غدا ، والآخرُ بعدَ غد ، حتّى يتأمَّر كلُّكم ودَعونى اليومَ أَليكُم .

وقبِلَ الأُمراءُ ذلك ، وجعلوا خالدًا قائدًا على الجيوشِ اليَوْم . كانوا يظنُّونَ أنَّ الأمرَ يطولُ جدّا ، وأنَّ كلاًّ منهم سيتولّى قيادةَ الجيوشِ يوما ، ولكنَّ خالدًا كان قد عزمَ على أن يُنْهِيَ المعرَكةَ اليَوْم .

وقسَّم خالدٌ جيشَه إلى ميْسَرَةٍ ومَيْمَنَةٍ وقلْب ، وجعل أبا عبيدةَ على القلْب ؛ ويزيدَ بنَ أبى سُفيانَ على المَيْسَرَة ، وعمْرَو بنَ العاصِ على الميمنة . وخفقتْ راياتُ المسلمين ، وخفقتْ راياتُ الرّومِ عليها النّسرُ الرّومانى ، ولاحَ فرسانُ الرّومِ كالغَمام . وكَانَ جنودُ الرّوم قد شُدَّ بعضُهم إلى بعضٍ

بالسَّلاسِلِ والحِبالِ حتّى لا يفرّوا ، وارتفعتْ أصواتُهم ، وظهر القساوِسَةُ والرُّهبانُ يحُضُّونَهمْ على القِتال .

كان خالدٌ فى الخيل ، فساق بفرسِه إلى أبى عُبَيدة ، وقال له :

ـ إنَّ هؤلاءِ القومَ لابد لهم من حملةٍ عظيمة ، لا محيدَ لهم عنها ، وإنى أخشى على الميمنةِ والميسرة ، وقد رأيتُ أن أفرِّقَ الخيلَ فرقتين ، وأجعلَها وراءَ الْمَيْمَنَةِ والْمَيْسَرَة ، حتى إذا صدموهم كانوا لهم رِدْءا (عونا) فنأتيهم من ورائهم .

فقال له أبو عبيدة :

ـ نِعْم ما رأيْت .

وسار أبو عبيدةَ بالنّاس وهو يقول :

ـ عبادَ اللّه ، انصروا اللّه ينصرْكم ويُثبِّتْ أقدامَكم . يا معشر المسلمين ، اصبروا فإنَّ الصبرَ مَنجاةٌ من الكفر ، ومرضاةٌ للرَّب .

وخرج جُرْجَة ، أحدُ أمراءِ الرّومِ الكبارِ من الصَّفّ ، واستْدعى خالدَ بنَ الوليد ، فجاء إليه حتى اختلَفَتْ أعناقُ فرسَيْهما ، فقال جُرْجة :

ـ يا خالد ، أخْبِرنى فاصدُقنى ولا تكذِبَنْ فإنَّ الحُرَّ لا يكذب ، ولا تُخادِعْنى فإنَّ الكريمَ لا يُخادِع ، هل أنزلَ اللّهُ على نبيِّكم سيفاً من السَّماء فأَعطاكه ، فلا تسلّه على أحدٍ إلا هزمتَهُم ؟

ـ لا .

ـ فيمَ سُمِّيتَ سيفَ اللّه ؟

ـ إنَّ اللّه بعث فينا نبيّه ، فدعانا فنفَرْنا منه ، ونأيْنا عنه جميعا ، ثم إنَّ بعضَنا صدَّقه وتابعَه ، وبَعضَنا كذَّبَه وباعَدَه ، فكنتُ فيمن كذَّبَه وباعَدَه ؛ ثمَّ إنَّ اللّهَ أخذ بقلوبنا ونواصينا ، فهدانا به ، وبايَعْناه ، فقال لى : أنت سيفٌ من سيوفِ اللّه ، سلّه اللّهُ على المُشركين ، ودعا لى بالنّصر ، فسُمِّيتُ سيفَ اللّهِ بذلك ، فأَنا من أشدِّ المسلمينَ على المشركين .

ـ يا خالد ، إلى مَ تَدْعُون ؟

ـ إلى شَهادةِ أن لا إله إلاَّ اللّه ، وأنَّ مُحَمَّدًا عبدُه ورسولُه ، والإقرارُ بما جاءَ به من عندِ اللّهِ عزَّ وجلّ .

ـ فمنْ لم يُجِبْكم ؟

ـ فالجِزْيةُ ونمنعُهم (نحميهم) .

ـ فإن لم يُعطِها ؟

ـ نُؤْذِنُه بالحربِ ثمّ نُقاتلُه .

ـ فما منزلَةُ من يُجيبُكم ويدخلُ في هذا الأمر اليَوْم ؟ (أى يُسْلِم) .

ـ منزلتُنا واحدةٌ فيما افترضَ اللّه علينا ، شريفِنا ووضيعِنا ، وأوّلِنا وآخرِنا .

ـ فلمنْ دخل فيكُمُ اليومَ من الأجرِ مثلُ ما لكُم من الأجر ؟

ـ نعم وأفضَل .

ـ وكيفَ يُساويكم وقد سبقتُموه ؟ (أى سبقتُموه فى الإسلام) .

ـ إنّا قَبلْنا هذا الأمرَ عَنْوَةً وبايَعْنا نبيَّنا وهو حيٌّ بين أظهُرنا ، تأتيه أخبارُ السّماء ، ويخبرُنا بالكتاب ، ويُرينا الآيات ؛ وحقٌّ لمن رأى ما رأينْا ، وسمِعَ ما سمِعْنا ، أن يُسلِمَ ويُبايع . وإنّكم أنتُم لم تروْا ما رأينْا ، ولم تسمَعوا ما سمِعنا من العجائبِ والحُجج ، فمن دخلَ فى هذا

الأمر منكم بحقيقةٍ ونِيَّة ، كان أفضلَ منا .

ـ باللّهِ لقد صدقْتنى ولم تُخادِعْنى ..

ـ تاللّهِ لقد صدقْتُك ، إنَّ اللّهَ ولىُّ ما سألتَ عنه .

وأسلَم جرْجة ، وراحَ يُحاربُ الرُّومَ مع خالد ، ودارتِ المعرَكَةُ شديدةً رهيبة ، وبينما هم فى حومةِ الوَغى والأبطالُ يصولونَ ويجولون ، والحربُ دائرة ، إذْ قدِمَ البريدُ من الحجاز ، فلما تسلّمه خالدُ بنُ الوليدِ وقرأه ، وجد أنَّ أبا بكر الصِّديقَ قد تُوُفّيَ واستخْلَفَ عُمرَ ، وأنَّ عُمَرَ عزَلَهُ عن إمارَةِ الجيش ، وجعلَ أبا عبيدةَ بْنَ الجرَّاح أميرًا على الجيش ، فكتم ذلك الخبرَ عن المسلمين حتى تنتهى المعرَكَة ، لِئلاّ يحصُلَ ضعفٌ فى أثناء القتال ، فينهزِمَ المسلمون .

واقتحم خالدٌ على الرُّومِ خَنْدَقَهم ، وكان اللّيلُ قد جاء ، وراح يضربُ فيهم بالسَّيف ، فجعل الّذين تسلْسلوا وقُيِّدُوا بعضهم ببعض ، إذا سقط واحد منهم فى النّهر ، سقط الّذين معه . وانهزم الرُّومُ وفرُّوا ،

والمسلمونَ يجرون خلفَهُم يقتُلونهم . وانتهتْ موقعةُ اليرْموكِ بنصرٍ مُبينٍ للمسلمين ، قُتلَ من الرُّوم مائةُ ألفٍ وعشرونَ ألفا ، وقُتلَ من المسلمينَ ثلاثةُ آلاف . ولمّا أصبحَ الْصباحُ وتمَّ النّصر ، رأى خالدُ بن الوليدِ أن يُخْبِرَ الناسَ بموتِ أبى بكرٍ الصّديق ، فقام خطيبا وقال :

ـ الحمدُ للّه الّذى قضى على أبى بكر بالموت ، وكان أحبَّ إلىَّ من عُمَر ، والحمد اللّه الّذى ولّى عُمَر ، وكان أبغَضَ إلىَّ من أبى بكر ، وألزمَنى حُبَّه .

وسارت الجيوشُ الإسلاميةُ لتفتحَ الشّام ، وقد صارَ أبو عبيدةَ قائداً للجُيوش ، وراح خالدٌ يحارِب وهو جُنديٌّ عاديٌّ فى جيشِ المسلمين ؛ لم يغضَبْ لعزلِه ولم يَثُرْ ، فقد كان على يقينٍ أنّه يحاربُ فى سبيلِ الإسلام ، وأنّه سيفٌ من سيوفِ اللّه ، سلّه على المشركين .

القصص الديني

الحلقة الثالثة
قصص الخلفاء الراشدين

وفاة أبي بكر الصديق

تأليف
عبد الحميد جودة السحار

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

بسم الله الرحمن الرحيم

« وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ، ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيد » .

(قرآن كريم)

١

كان المسلمون يقاتلونَ المُرتدِّين عن الإسلام ، فلما انتصروا عليهم راحوا يُقاتلونَ الفُرْسَ والرُّوم ، وقد قُتِل كثيرٌ من الَّذينَ يحفَظونَ القُرآنَ في هذه الحروب ، وخاف عُمَرُ بنُ الخطّاب أن يضيعَ القرآنُ بعد موتِ الَّذين يحفَظونَه ، فدخَلَ على أبي بكرٍ وقالَ له :

ـ إنَّ القتلَ قد استَحرَّ (اشتدَّ وكثُر) يومَ اليَمامةِ بالنّاس ، وإني لأخشَى أن يستمِرَّ القتلُ القُرَّاءِ في المَواطِن ، فيذهبَ كثيرٌ من القرآنِ إلاّ أنْ يجمَعوه ، وإني لأرَى أن يُجْمَع القرآن .

قال أبو بكرٍ لعُمَر :

ـ كيفَ أَفعلُ شيئًا لم يفعلْهُ رسولُ اللّهِ ﷺ ؟!

فقال عُمَر : هو واللّه خَيْر .

فلم يزَلْ عُمَرُ يُراجعُ أبـا بكـر ، حتَّى شـرَح اللّهُ لذلك صدْرَه ، وأرسل أبو بكرٍ إلى زيـدِ بـنِ ثـابت ، وكان يكتُبُ الوَحْـيَ لرسـولِ اللّـه صلّـى اللّـه عليـه وسلَّم ، فلما جاء زيدٌ قال له أبو بكر :

ـ إنَّـك شـابٌّ عـاقِل ، ولا نتَّهِمُـك ، وقـد كنـتَ تكتُبُ الوَحْيَ لرسولِ اللّه ، فتتبَّع القُرآنَ واجمَعْه .

وأحسَّ زيدُ بنُ ثابتٍ أنَّ أبا بكـرٍ يطلـبُ منـه أمـرًا خطيرا ، وشعر بأنّه لو كان قد كلَّفـه نقلَ جبـلٍ مـن الجبالِ لكـانَ أيسـرَ مِمَّـا أمـره بـه ، فـراح زيـدٌ يجمـعُ القـرآنَ مـن الرِّقـاع والأكتـاف (ألـواحٍ من عظـم الكَتِـف ، كـان العربُ يُنظِّفونَهـا ويكتُبـون عليهـا كتاباتِهم) وصـدورِ الرِّجال .

استمرَّ زيدُ بنُ ثابتٍ يعمَـلُ اللَّيـلَ والنَّهـار ، حتَّى تمكَّن من جمعِ القرآنِ في صُحُف ، ودفـع بـالصُّحُفِ إلى أبي بكر ، فبقِيَتْ عندَه .

٢

كان الجوُّ باردا ، فدخل الناسُ دورَهم يَحتَمونَ فيها من البرْد ، ودخل أبو بكرٍ دارَه يغتسِل ، فخرج بعد أن اغتَسَل ينتفِض ، فدخل فِراشَه ، فأحسَّ حرارتَه ترتفع ، وأنَّ رأسَه يكادُ ينفجرُ ، ومرِضَ أبو بكرٍ بالحُمَّى ، فلمْ يُعدْ بقادرٍ على أنْ يخرُج ليُصلِّيَ بالنّاس .

ودعا أبو بكرٍ عبدَ الرَّحمَنِ بنَ عوْف ، وكان من خِيرَةِ صحابةِ الرَّسول ، وقال له :

ـ أخبرْني عن عُمَر ؟

فقال عبدُ الرَّحمن :

ـ يا خليفةَ رسولِ اللّه ، هو واللّهِ أفضلُ من رأيِكَ فيه من رجُل ، ولكنْ فيه غِلْظة .

فقال أبو بكرٍ :

ـ ذلكم لأنه يرانى رقيقا ، ولو أَنَّه أَفْضَى الأمرُ إليه ، لترَكَ كثيرا ممَّا هو عليه . وقد رمقتُه فرأَيتُنى إذا غضِبتُ على الرجلِ فى الشَّىء ، أرانى الرِّضا عنه ، وإذا لِنتُ له ، أرانى الشِّدَّة عليه . لا تذكرْ يا أبا محمَّد ممَّا قلتُ لك شيئا .

قال عبْدُ الرَّحمَن بنُ عوْف : نعم .

وفهِم عبدُ الرَّحمن أَنَّ أَبا بكرٍ يُريدُ أن يستخْلِف عُمَر على المسلمينَ بعدَه .

ودعا أبو بكرٍ عثمانَ بنَ عَفّانَ وقال له :

ـ يا أبا عبدِ اللّه ، أخبرْنى عن عمر .

قال عثمان : أنتَ أخبَرُ به (أى أعلَمُ به) .

ـ عَلَى ذاك .

قال عثمان :

ـ اللَّهم عِلْمي بـه أنَّ سريرتَه خيرٌ من علانيَتِه ، وأنْ ليسَ فينا مثلُه .

قال أبو بكر :

ـ رحِمَك اللّه يا أبا عبدِ اللّه . اكتُبْ : بسمِ اللّه الرحمن الرَّحيم . هذا ما عهَد به أبو بكرِ بنُ أبى قُحافةَ إلى المسلمين ، أما بعد ..

ثم أُغمِىَ على أبى بكر ، فكتبَ عثمان « ... فإنّى قد استخْلفتُ عليكم عُمرَ بنَ الخطّاب ، ولم آلُكُمْ خيرًا منه ... »

وأفاق أبو بكر ، فقال لعثمان : اقرأْ علىَّ .

فقرأ عثمانُ ما كتب ، فقال أبو بكر :

ـ اللّه أكبر ! أراكَ خِفْتَ أن يختلِفَ النّاس إن افْتُلِتَتْ نفسى فى غَشيَتى .

ـ نعم .

ـ جزاكَ اللّهُ خيرًا عن الإسلامِ وأهلِه .

واستخْلفَ أبو بكرٍ على النّاسِ عمرَ بنَ الخطّاب ، فسمِع النّاسُ له وأطاعوا . ودخل طلحةُ بنُ عُبَيْدِ اللّه عليه ، وكان من كبارِ الصَّحابة .

وقال له :

ـ استخلفت على النّاسِ عمرَ ، وقد رأيتَ ما يَلقى النّاس منه وأنت معه ، فكيف به إذا خلا بهم ، وأنتَ لاقٍ ربّك ، فسائلُك عن رعيَّتِك ؟

فقال أبو بكر ، وكان مضطجعا : أجلسونى .

فأجلسوه ، فالْتفت إلى طلحةَ وقال :

ـ أباللّه تُخوِّفُنى ؟ إذا لقيتُ اللّهَ ربّى فساءَلَنى قلت : استخْلفتُ على أهلِكَ خيرَ أهلِك .

ودَخل عبدُ الرَّحمن بنُ عوْفٍ على الصِّدِّيق ، وَفطِن الصِّدِّيقُ إلى تغيُّرِ وجهِ عبدِ الرَّحمنِ بعد أن اسْتخْلفَ أبو بكرٍ على النَّاس عمر بنَ الخطّاب ، فقال له أبو بكر :

ـ إنّى وَلَّيْتُ أمرَكم خيرَكم فى نفسى ، فكلُّكُمْ وَرِمَ أنفُه من ذلك ، يُريدُ أن يكونَ له الأمرُ دونَه ، ورأيْتُمُ الدُّنيا قد أقبلَتْ ، ولَمّا تُقبِلْ : وهى مقبلةٌ حتى تتّخذوا سُتورَ الحرير ، ونَضائدَ الدّيباج ،

وَتَألَموا الاضطِجاعَ على الصُّوف ، كما يألَمُ أحدُكم أن ينامَ على حَسَكِ السَّعْدَان (السعدان : نبت ذو شَوك حاد) .

٣

جلستْ عائشةُ ابنةُ أبى بكر ، وزوجةُ النبىِّ ، تُمَرِّضُ أباها ، فنظر أبو بكرٍ إليها طويلاً وقال :

ـ يابُنَيَّة ، إنَّ أحبَّ النّاسِ غِنًى إلىَّ بَعدى أنتِ ، وإنَّ أعزَّ الناسِ فقْرًا علىَّ بَعدى أنتِ ، وإنّى كنتُ نَحَلتك (أعطيتك) أرضى التى تعلَمين ، وأنا أحبُّ أنْ تَرُدِّيها علىّ ، فيكونَ ذلك قسمةً بين وَلَدى على كتاب اللّه ، فإنما هو مالُ الوارِث ، وهما أخَواك وأُختاك .

فظهَر الدَّهشُ فى وجهِ عائشة ، فما لها إلا أختٌ واحدَة ، هى أسماء ، وقد ذهبتْ مع زوجِها إلى اليَرْموك لِقتالِ الرّوم ، فما بالُ أبيها يقولُ : أختاك ؟! فقالتْ فى عجب : أُختاى ؟

فقال أبو بكر فى هدوء :

ـ ذو بطن ابنةِ خارجَة ، فإنى أظنُّها جارية .

كانت حبيبةُ بنتُ خارجةَ زوجتُه حاملا ، فلم يشأْ أن يُهمِلِ ولَده الّذى لايـزالُ فـى عـالَمِ الغيْـب ، بـلْ راح يُفكِّر فيه ، ويعمَـلُ علـى إحقـاقِ حقِّـه قبـلَ أن يراه .

واشتدَّ المرضُ عليه ، فنظر إلى زوجتِـه أسمـاءَ بنـتِ عميْس وقال : غَسِّلينى .

فقالتْ أسماءُ فى ضيق فما كانتْ تُحِـبُّ أن تُغسِّـل زوجَها بعد موتِه :

ـ لا أُطيقُ ذلك .

فقال لها أبو بكر :

ـ يُعينُك عبدُ الرَّحمن بنُ أبى بكر ، يصبُّ الماء .

والتفتَ إلى عائشة وقال :

ـ فى كمْ كُفِّنَ رسولُ اللّه صلَّى اللّهُ عليه وسلَّم؟

فقالت عائشة : فى ثلاثةِ أثواب .

فقال أبو بكر :

ـ اغسِلوا ثوبَىَّ هَذَيْن ـ وكانا ممزَّقين ـ وابتـاعوا لى ثوبًا آخر .

فقالت له عائشة :

ـ يا أبت إنّا موسرون .

فقال أبو بكر فى هدوء :

ـ أىْ بنيَّة ، الحىُّ أحقُّ بالجديدِ من الميِّت ، إنما هما للمُهْلَةِ (للقيح) والصَّديد .

وبدأتِ الشَّمسُ تغرُب ، واشتدَّ المرضُ بأبى بكر ، وراحُ يُعالِجُ سَـكَراتِ الموْت ، وفتـح عينْيـه ، وقـال بصوتٍ خافت :

ـ يا عائشة ، ادفِنونى بجوارِ رسولِ اللّه .

ثم أسـبل جفنيـه ، وأخـذت روحُـه تُحشْـرِجُ فـى صدرِه ، فقالت عائشة :

لعمرُك ما يُغنى الثَّراءُ عن الفتَى

إذا حشرجتْ يومًا وضاقَ بها الصَّدرُ

فبان الغضب فى وجهِ أبى بكر ، ساءَه أن تتمثّل أمُّ المؤمنينَ بذلك الشِّعر ، ولا تتمثّل بالقرآنِ ، فقال :

ـ ليسَ كذلك يا أُمَّ المؤمنين ، ولكن : « وجاءتْ سكرةُ الموتِ بالحقّ ، ذلك ما كنتَ منه تحيد » .

واشتدَّ عليه الموتُ فقال هامسا :

وكلُّ ذى إبلٍ موروثٌ   وكلُّ ذى سلب مسلوبُ
وكلُّ ذى غَيْبةٍ يئوبُ   وغائبُ الموتِ لا يئوبُ

وراح يجودُ بأنفاسِهِ الأخيرة ، وكان آخرُ ما نطقَ به :

ـ « ربِّ توفَّنى مُسلمًا ، وألحقنى بالصَّالحين » .

وفاضت روحُ أَبى بكر ، خليفةِ الرَّسول ، فحزنَ النّاسُ لوفاتِه حُزنًا شَديدا ، وراحوا يُجهِّزونَه لَيْلا ، ثُمَّ حُفِر له لَحْدٌ بجوارِ لحدِ النَّبىِّ فى بيتِ عائشة ، وحملوه ، ودخل قبرَه عُمَرُ وعثمانُ وطلحةُ وعبدُ الرَّحمنِ ابنُ أَبى بكر .

دُفِن أَبو بكر ، وسمع عُمَرُ نُواحا ، فقد أَقامتْ عليه عائشةُ النَّوحْ ، فانقبضَ عمر ، وسار إلى بابِ عائشة ، ونهَى النِّساءَ النائحاتِ عن البكاء ، فأبينَ أَن ينتهين ، فتحرَّك غضبُ عمرَ ، فالتفتَ إلى رجل معه ، وقال له :

ـ ادخل فأخرجْ إلىّ ابنةَ أَبى قُحافة ، أُختَ أَبى بكر .

وبلغ ذلك سمعَ عائشة ، فقالتْ للرَّجلِ من وراءِ الباب :

ـ إنى أُحرِّجُ عليك بيتى .

فأحجمَ الرجل ، فقال له عمر :

ـ ادخل ، فقد أَذِنْتُ لك .

فدخل هشام ، فأخرجَ أُمَّ فروةَ أُختَ أَبى بكر إلى عمر ، فعلاها بالدِّرَّة ، فضربها ضَرَبات ، فتفرَّق النائحات حينَ سَمِعْنَ ذلك .

وخرجت عائشةُ ووقفتْ على قبرِ أَبيها فبكت ، ثم قالَت :

ـ نضر اللّه يا أبتِ وجهَك ، وشكر لك صالحَ سعيك ، فقد كنتَ للدُّنيا مُذِلاًّ بإدبارِك عنها ، وللآخرةِ مُعزًّا بإقبالِك عليها ، ولئن كان أعظمَ المصائبِ بعد رسولِ اللّه صلّى اللّهُ عليه وسلّم رُزْؤُك « مصيبتك » ، وأكبر الأحداثِ بعده فقدُك ، إن كتابَ اللّه عزَّ وجلَّ ليَعِدُنا بالصَّبْر عنكَ ، حسْنَ العَوَض مِنك . وأنا مُتنجِّزَةٌ من اللّهِ موعدَه فيك ، بالصَّبْر عنك ، ومُستعينةٌ كثرةَ الاستغفار لك ، فسلّم اللّه عليك ، توديعَ غيرِ قالِيةٍ لحياتِك ، ولا زاريةٍ على القضاءِ فيك .

الحلقة الثالثة

قصص الخلفاء الراشدين

القصص الديني



عمر أمير المؤمنين

تأليف

عبد الحميد جودة السحار

الناشر

مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

بسم الله الرحمن الرحيم

« إنّ الله اشترى من المؤمنينَ أنفسَهم وأموالهم بأنَّ لهم الجنَّة ، يقاتلونَ في سبيل الله فيَقتُلون ويُقتلون ، وعدًا عليه حقًّا في التَّوراةِ والإنجيلِ والقرآن ، ومن أوفَى بعهدِه من الله ، فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوزُ العظيم » .

« قرآن كريم »

١

كان المُثَّنى بنُ حارثةَ الشَّيبانيُّ قائداً على الجيوش الإسلامية ، التى تحاربُ الفرس فى العراق ، وقد جمعت الفرسُ الجموعَ لقتالِ المسلمين ، فرأى المُثَّنى أن يذهبَ إلى المدينة ، ليقابلَ خليفةَ رسولِ الله ، ويطلبَ منه أن يُمِدَّه بالجيوش ، ليستمرَّ فى غزوِه وفتوحاتِه .

وسافر المُثَّنى إلى المدينة . فلما بلغها ، وعلِم أنَّ خليفةَ رسولِ اللهِ مريض ، وأنَّه مشرِفٌ على الموت ، طَلب الإذنَ بالدخول ، فأذِنَ له . فلما دخل ، قال له :

— إنَّ الفُرسَ مختلِفون فيما بينهم ، وفى هذا فرصةٌ طيِّبةٌ للمسلمين ، وإني أرى ضرورةَ إرسالِ مَدَدٍ من الجيوش، ليتمَّ لنا فتحُ العراق .

فأرسل أبو بكرٍ إلى عُمر ، وكان أوصى النّاسَ أن يستَخلِفوه عليهم بعدَ موتِه ، وقال له :

— اسمعْ يا عمرُ ما أقولُ لك ، ثمَّ اعمَل به : إنّى لأرجو أن أموتَ فى يومى هذا ، فإن أنا متُّ فلا تُمسينَّ حتى تندُبَ الناسَ مع المُثَنّى (أى تطلبَ من النّاسِ الخروجَ مع المُثَنّى لقتالِ الفُرس) ، وإن تأخرتُ إلى اللّيل ، فلا تُصبِحنَّ حتى تندُبَ النّاسَ مع المُثَنّى ، ولاتشغَلْكم مُصيبة وإن عظُمَت ، عن أمرِ دينِكم ، ووصيةِ ربِّكم .

ومات أبو بكرٍ فى اللّيل ، ودُفِن فى اللّيل . ولما أصبحَ الصباح ، خرج عمرُ إلى النّاسِ بالمسجد ، فأقبلوا عليه يُبايعونَه ، وتوافدوا على المسجد ، حتّى إذا كان الظُّهر ، ازدحمَ الناسُ للصّلاة ، فصعِد عمرُ المِنبَر ، وقال :

— أيُّها النّاس ، ما أنا إلا رجلٌ منكم ، ولولا أنى كرِهتُ أن أرُدَّ أمرَ خليفةِ رسولِ الله ، ماتقلَّدْتُ أمرَكم (أى ماقبِلتُ أن أكونَ حاكِمًا لكم) .

ورفع بصرَه إلى السَّماء ، وقال :

— اللهَّم إنّى غليظٌ فليِّنّى ، اللهمَّ إنِّى ضعيفٌ فقوِّنى ،

اللّهمَّ إنِّى بخيلٌ فَسَخِّنى : (أى اجعلْنى جواداً كريما) . إنَّ اللهَ ابتلاكُم بى ، وابتلانى بكم ، وأبقانى فيكم بعد صاحِبَيَّ (الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ، والصِّدِّيق) ، ولَئِن أحسنوا لأحسِنَنَّ ولئن أساءوا لأُنكلَنَّ بهم .

وصلَّى عمرُ بالنّاس ، ثم وقف يدعوهم أن يخرجوا مع المُثَنّى لقتالِ الفُرس ، فلم يُلَبِّ أحدٌ دعوتَه ؛ كان المسلمونَ يخشوْنَ « فارسَ » ؛ لشِدَّةِ سلطانهم وشوكتِهم ، وقهرِهم الممالك .

ومرَّ اليومُ ولم يتقدَّم أحدٌ للخروجِ لقتالِ الفُرس ، فحزن عمر ، وبات ليلتَه يُفكِّر ، فاهتدَى إلى أنَّ الناسَ يخشَوْنَ شدَّتَه وغِلْظَته ، فقد كان شديداً أيّامَ النبىّ ، وفى أيّامِ خلافةِ أبى بكر ، فعَقدَ العزمَ على أن يشرح للنّاسِ سياستَه ، ليُزيلَ من صدورِهم هذا الخوف وهذه الرَّهبة .

وأصبَح الصَّباح ، وخرج عمرُ إلى المسجد ولما ازدحمَ المسجدُ بالنّاس ، صعِد المِنبرَ ، وقال :

— بلغنى أنَّ الناس هابُوا شدَّتى ، وخافوا غِلْظتى ، وقالوا : قد كان عمرُ يشتدُّ علينا ورسولُ اللهِ بينَ أظهُرنا ،

ثم اشتدَّ علينا وأبو بكرٍ والينا دونَه ، فكيف وقد صارتِ الأمورُ إليه ؟ ! ومن قال ذلك فقد صَدق : إننى كنتُ مع رسولِ الله ؛ فكنتُ عبدَه وخادمَه ، وكان مَنْ لا يبلغُ أحدٌ صفتَه من اللّينِ والرَّحمة ، وكان - كما قال الله - بالمؤمنينَ رءوفاً رحيما ، فكنتُ بين يديه سيفاً مسلولا ، حتى يُغمدَنى أو يدعَنى فأمضى ، فلم أزلْ مع رسولِ الله حتى توفَّاهُ الله ، وهو عنّى راض ، والحمد للهِ على ذلك كثيرا ، وأنا به أسعَد .

ثم ولِىَ أمرَ المسلمين أبو بكر ، فكان من لاتُنكرونَ دَعَتَهُ وكرمَه ولينَه ، فكنتُ خادمَه وعونَه ، أخلِطُ شِدّتى بلينِه ، فأكونُ سيفاً مسلولا ، حتى يُغمدَنى أو يدَعَنى فأمضى . فلم أزلْ معه كذلك حتى قبضه اللهُ عزَّ وجلَّ وهو عنى راض ، فالحمدُ للهِ على ذلك كثيرا ، وأنا به أسعَد .

ثم إنّى قد وُلِّيتُ أمورَكم أيها النّاس ، فاعلموا أنَّ تلك الشدَّةَ قد أُضعِفَتْ ، ولكنَّها إنما تكونُ على أهلِ الظُّلمِ والتَعدِّى على المسلمين ، فأمَّا أهلُ السلامة والدينِ والقصد ،

فأنا ألينُ لهم من بعضهِم لبعض ، ولستُ أدعُ أحدًا يظلمُ أحدا ، أو يتعدَّى عليه ، حتى أضعَ خدَّه على الأرض ، وأضعَ قدمى على الخدِّ الآخر ، حتى يُذعِنَ بالحق ، وإنّى بعد شدَّتى تلك ، أضع خدّى على الأرضِ لأهلِ العَفافِ وأهلِ الكفاف .

لكم علىَّ أيها النَّاس خصالٌ أذكُرها لكم ، فخذونى بها : لكم علىّ ألا أجتَبى (آخُذَ) شيئا من خراجِكم ، ولا ما أفاء الله عليكم إلا من وجهِه ، ولكم علىَّ إذا وقع فى يدى ألا يخرُجَ منى إلاَّ وهو فى حقِّه ، ولكم علىَّ أن أزيدَ عطاياكم وأرزاقكم إن شاء الله تعالى ، وأسُدَّ ثغورَكم ، ولكم على ألا ألقِيكم فى المهالك ، ولا أجمِّرَكم فى ثغورِكم ، ولا أجمعكم فى مواطنِ القِتال ، ولا أحبِسكم عن العودة إلى أهلكم ، وإذا غبتُم فى البُعوثِ فأنا أبو العِيال .

فاتَّقوا اللهَ ، عبادَ الله وأعينونى على أنفُسِكم ، بِكفِّها عنى ، وأعينونى على نفسى ، بالأمرِ بالمعروف ، والنَّهْيِ عن المنكر ، وإحضارى النصيحةَ فيما ولاّنى الله من أمركم . أقولُ قولى هذا ، وأستغفِرُ الله لى ولكم .

وطلب عمرُ من النَّاس أن يخرُجوا مع المُثنَّى لحربِ الفُرس ، ولكن لم يخِفَّ أحدٌ لتَلبيةِ هذا الطَّلب ، فقام المُثنَّى ، وقال :

ـ أيُّها الناس ، لا يُعظُمنَّ عليكُم هذا الوجه ، فإنا قد تبحبحنا (تمكنَّا من) ريف فارس ، وغلبناهم على خيرِ شِقَّى السَّواد (الأرضِ الخصبة) وَشاطرْناهم ، ونلنا منهم ، واجترأ مَنْ قِبلنا ، ولها إن شاء الله ما بعدها .

وقام عمرُ يخطب النّاسَ . قال :

إنَّ الحجازَ ليس لكم بدارٍ إلاَّ على النُّجْعَة (أى طلبِ المرعَى) ، ولا يقوَى عليه أهلُه إلا بذلك . سيروا فى الأرض التى وعدكُم اللهُ فى الكتابِ أن يُورِّثكمُوها ، فإنه قال : « لِيُظهرَه على الدّينِ كلهِّ » . واللهُ مُظهرٌ دينَه ، ومُعزٌّ ناصرَه ، وموِلٍ أهلَه مواريثَ الأمم ، أين عبادُ الله الصالحون ؟

وتلفَّت الناس ، وتقدَّم أبو عبيدِ بن مسعودِ الثَّقفى ، فلما رأى سعدُ بنُ عُبيْدٍ ذلك ، تقدَّم هو الآخر ، وتقدَّم سَليطُ بنُ قيس ، فسرتْ موجةُ حماسةٍ بين الحاضِرين ، فراحوا ينضمون إلى المسلمينَ الخارجين لملاقاة فارس .

واجتمع كبارُ المهاجرينَ والأنصارِ بعُمر ، وقالوا له:

ـ أمِّر عليهم رجلا من المهاجرينَ أو الأنصار .

فرفض عمرُ ذلك ، وقال :

ـ إنَّ من سَبَق إلى الدَّفع ، وأجابَ إلى الدُّعاء ، أولَى بالرياسة .

وأمَّر أبا عُبيد ، أوَّلَ من لبَّى النِّداء على الجيش ، وقال له :

ـ اسمعْ من أصحابِ النّبىِّ صلَّى اللهُ عليه وسلم ، وأشْرِكهُم فى الأمر .

٢

جلسَ عمر فى المسجد ، ودخل أبو عُبيدٍ عليه يودِّعه قبلَ أن يسيرَ إلى العراق ، فقال له :

ـ السّلامُ عليك يا خليفةَ خليفةِ رسولِ الله .

وراح النَّاسُ يقولون له كلَّما حدَّثوه : يا خليفةَ خليفةِ رسولِ الله .

وأقبلَ رجلٌ ، وقال له :

ـ سلامُ الله عليكَ ، يا أميرَ المؤمنين .

فلمَّا سمع النَّاسُ ذلك سُرُّوا ؛ كان لقبُ « أمير المؤمنينَ » خفيفاً على السَّمع ، فراحوا يقولون لعمرَ كلَّما حدَّثوه : يا أميرَ المؤمنين ! وبذلك كان عمرُ أوَّلَ حاكمٍ مسلم لُقِّبَ بأميرِ المؤمنين .

٣

سار أبو عُبيدٍ بالجيوشِ الإسلاميَّة ، وراح ينتقّل من نصر إلى نصر ، فأقلق انْتصارُ العربِ الشَّعبَ الفارِسىّ ، فتجمهرَ النّاس أمامَ القصرِ المَلَكىّ ، وجعلوا يطلبون طردَ المسلمينَ من العراق ، وأخرجوا (الدِّرَفْس كابيان) وهى رايةُ كِسْرَى ، وهى من جلودِ النُّمور طولُها اثنا عشرَ ذَراعا ، وعرضُها ثمانيةُ أذرُع ، وكانت على خشبٍ طُوَالٍ مُوَصَّل ، وما كانت فارسُ تظهرُها إلا فى الأمرِ الشَّديد . وسببُ اعتزازِهم بهذه الرّاية ، أنَّ أحدَ ملوكِ الفُرْسِ جارَ على رعيَّته ، وعذَّبهم وظلمهم ، فلم يُطِقْ حَدَّادٌ ذلك الظُّلمَ الشَّديد ، فخرج من حانوتِه ، وخلعَ الجلدَ الذى يربطُه فى وسطِه ، ورفعَه على عصًا طويلة ، وسار يهتف : « من لا يُطيقُ الظُّلم فليتبْعنى » . فتشجَّع بعضُهم وانضمّوا إليه ، فسارَ إلى القصر المَلكىّ ، والنّاسُ تنضمُّ إليه ، حتَّى بلغ القصر ، وخلع الملك ، ونصَّبَ النّاسُ الحدَّادَ ملِكا ، وأسّس الدولة الكِسْرَويّة ، فاتَّخذ مُلوكُها رايةَ الحَدّادِ شِعارًا لهم ، ثم استُبدلَت بجلدِ النُّمور .

واجتمعت الجيوشُ الفارسيَّة ، وسارت حتى بلغتِ الفُرات ، فعسكرتْ على ضِفَّتِه ، وجاءت جيوشُ المسلمين وعسكرت على الضِّفَّةِ الأخْرى ، ولم يكن يفصِلُ بينهم إلا النَّهر .

أرسلَ قائدُ الفرسِ إلى أبى عُبيدِ بنِ مسعود : إمّا أن تعبرُوا إلينا ، وإمّا أن تدَعونا نعبرُ إليكم ، فاجتمع رؤساءُ الجيوشِ الإسلاميَّة ، وتداولوا فى الأمر . كان من رأيهم أن يدَعوا الأعداءَ تعبرَ إليهم ، ولكنَّ أبا عبيدٍ رأى أن يعبُرَ المسلمون ، فأمر بإنشاءِ جسْر ، فراح الناسُ يعملونَ فى إنشائه . ولما تَمَّ عبر عليه المسلمون ، والتفتَ أبو عُبيدٍ إلى الجسر ، وأمر بقطعه ، فأسرع النّاسُ إليه ليمنعوه ، وقال قائل منهم :

ـ أيها الرجل ، إنّه ليس لك علمٌ بما ترى ، وأنت تخالِفُنا ، وسوف تُهلك من معك من المسلمين ، بسوءِ

سياستِك ، تأمرُ بجسرٍ قد عُقِد أن يُقطَعَ فلا يجدَ المسلمونَ ملجأ من هذه الصحارَى والبرارىّ ، فلا تُريدُ إلاَّ أن تهلِكَهم فى هذه القطعة .

ولم يقبلْ أبو عبيدٍ وقطعَ الجِسر ، كان يُريدُ أن يحارب المسلمون وهم يعلمون أن ليس لهم إلا الموتُ أو النصر ، فلم يَعُد هناك طريقٌ يفرّون منه .

وسوَّى المسلمونَ صفوفَهم ، واستعدّوا لملاقاةِ الأعداء ، وأقبلتْ جيوشُ فارسَ أمامها فيل ، وابتدأ القتال ، فجرتِ الدماءُ أنهارا ، وقُتل من الفرس ستةُ آلاف ، وتقدَّم الفيل ، يضربُ المسلِمينَ بخُرطومِه ، فدبَّ الذُّعُر بينهم وفرّوا من أمامِه ، ولما رأى أبو عبيد ذلك نزل عن حصانِه ورمُحه فى يدِه ، واندفع نحوَ الفيل ، وصوَّب إلى عينيه ضربةً هائلة ، فراح الفيلُ يضرب بيدِه ، فضرب أبا عُبيدٍ ضربةً قاتلةً فسقط ميّتا .

رأىَ الجندُ ما حلَّ بقائدِهم فذُعروا ، وهربوا ، فراح الفُرسُ يضرِبونهم بسيوفِهم ، وألقَى المسلمون بأنفسهم فى النهر ، وصاح المُثَنَّى :

ـ أعيدوا عقدَ الجِسر .

وراح المسلمونَ يعقدونه ، والمُثَنَّى ومن معه يتحمَّلون هَجَمات الأعداء ، ولما تمَّ عَقدهُ ، صاح :

ـ يأيُّها النَّاس ، أنا دونكم (أى سأدافع عنكم) فاعبُروا على هينَتِكُم (راحتكم) ، ولا تدهَشوا ، فإنّا لن نزايلَ (لن نترك مكاننا) حتَّى نراكم من ذلك الجانب ، ولا تُغرقوا أنفسَكم .

واستمرتِ الحربُ طاحنةً بين المُثَنَّى ومن معه ، وبين جيوشِ الفرس ، وأسرَع النّاسُ إلى عُبورِ الجِسر ، ولكنَّهم وجدوا رجلاً عند رأسِ الجِسر شاهرًا سيفه ، يمنَع النَّاسَ من العبور ، وهو يصيحُ فيهم :

ـ لن نفرَّ أبدا ، لن نفرَّ أبدا ، موتوا على ما مات عليه أمراؤكم .

فتكاثروا عليه وأخذوه ، وأتَوا به المُثَنَّى ، فضربه وقال له :

ـ ما حمَلَك على هذا ؟

ـ ليقاتلوا وليموتوا على ما مات عليه أمراؤهم ، أو يظفروا .

وراح النَّاسُ يعبُرون الجِسر ، والمُثَنَّى وفرسانُ المسلمينَ يحمونَ المنسحبين ، وقاتلوا قتالَ الأبطالِ وهم يتقهقرونَ صوبَ الجِسر ، وأخَذَ مَن مع المُثَنَّى فى العبور ، وراح المُثَنَّى يعبُر الجسرَ وهو يقاتل الفُرس . ولما انتهى من العبورِ قَطعَ الجسرَ خلفَه .

وارتمَى المُثَنَّى على الشاطىء منهوكا ، وفرَّ المسلمون وهاموا على وجوهِهم ، وذهب أغلبُهم مفزوعينَ إلى المدينة .

وحاول الفرسُ عُبورَ النَّهر ، ومطاردة المسلمين ، والقضاءَ عليهم ، وبقِىَ المُثَنَّى ومن معه ينتظرونَ قضاءَ الله ، بقلوبٍ عامرةٍ بالإيمان . كان الموتُ يقتربُ منهم وما يحول بينَهم وبينه إلا ذلك النهر : انتظروا قضاءَ الله صابرين ، فلن ينجيَهم مما حاق بهم من خطرٍ إلا معجزةٌ من السماء .

وجاء عونُ الله سريعا ، فما همَّتْ جيوشُ الفُرسِ بالعبور ، حتَّى سرَى نبأ بينهم أنَّ الناسَ فى عاصمةِ مُلكهِم قد ثاروا ، وانقسموا قسمين ؛ فانشغلوا بذلك وانسحبوا ، فلما رأى المثَّنى انسحابَهم ، خرَّ ساجداً لله ربِّ العالمين .

القصص الديني

الحلقة الثالثة
قصص الخلفاء الراشدين

فتح دمشق

تأليف
عبد الحميد جودة السحار

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

بسم الله الرحمن الرحيم

« إِن تَنْصُرُوا اللّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثبِّتْ أَقْدَامَكمْ »

(قرآن كريم)

١

عزم أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ على فتْح الشّام ، فأرسلَ أربعة جيوشٍ إليها ، وسارتْ هذه الجيوشُ وقاتلت الرّوم ، فلقِيتْ منهم مقاومةً شديدة ، فرأى أبو بكرٍ أن يُعزِّزَ هذه الجيوشَ ببعضِ أبطال المسلمين ، الّذين يُحاربونَ الفُرسَ في العِراق ، فكتبَ إلى خالدِ بنِ الوليد ، سيفِ اللّه المسلول ، أن يسيرَ من العراقِ إلى الشّام . واجتمعتْ جيوشُ المسلمينَ تحتَ إمرةِ خالد ، واجتمعتْ جيوشُ الرُّومِ تحت إمرةِ ملكِهم هِرَقْل . وجاءتِ الأنباءُ بموتِ أبي بكرٍ وتوليةِ عمرَ الخلافة ، وقد التقَى الجيشانِ عند نهرِ اليَرْموك ، وقد دارتْ رحَى معركَةٍ فاصلة ، بين الرُّوم والمسلمين . وجاءتِ الأنباءُ بعزلِ خالدٍ وتوليةِ أبي عُبيدَة بنِ الجرّاح ، قائدًا عامًّا على جميعِ جيوشِ المسلمينَ ، فكتمَ خالدٌ هذا النَّبأَ ، حتى تمتْ له هزيمةُ الرُّوم ، ثم أَعلنَ النبأ ، وأَعلن قَبولَه أن يعملَ كأَحَدِ الجُندِ في

جيشِ أبى عبيدة ، فقد كان خالدٌ يحاربُ فى سبيلِ اللّه ، سواءً عندَه أكانَ قائدا أم جنديّا .

وسار أبو عبيدةَ بالجيوش ، وقد جعل وجهتَه دِمَشق ، عاصمةَ الشّام ، فجاءتهُ الأخبارُ بأنّ المَددَ قد أتى أهلَ دِمَشْقَ من حِمْص ، فأصبحَ لا يَدْرِى أيبدأُ بغزوِ دِمَشْقَ أم بمدينةِ فَحْلِ من بلادِ الأرْدُنّ ، فكتب فى ذلك إلى عمرَ بن الخطاب ، فلما جاء عمرَ الكتاب ، كتب إلى أَبى عبيدة : « أَمَّا بعد ، فابدءوا بدِمَشْق ، فإنّها حِصْنُ الشّام ، وبيتُ مملكتهِم ، واشغَلوا عنكم أَهلَ فحلِ بخَيلِ تكون بإزائهم فى نحورِهم » .

فسرَّح أَبو عبيدَةَ إلى فحلِ عشرةَ قوّاد ، فلما رأتِ الرّومُ أَنَّ الجنودَ تُريدُهم ، بَثقوا المياهَ حول فحل : أطلقوا ماءَ بُحيرةِ طَبَريَّةَ ونهر الأُردنِّ فى الأرضِ حولَهم ، فأَرْدغَتِ الأرض ، ثم توَحَّلَت ،

وتعذّر السَّيرُ فيها ، فوقفوا بإزاءِ الرُّومِ وحاصروهم .

وأرسل أبو عبيدةَ جيشًا آخر ، ليقفَ بين دِمَشْقَ وحِمص ، حتى يتعذّر على هِرقلَ ملكِ الرُّوم ، الّذى كان فى حِمْص ، أن يُرسلَ المددَ إلى دِمَشْق ، إذا ما هاجَمها أبو عبيدةَ بجيشِه .

وسار أبو عبيدةَ إلى دِمَشق ، وقد جعل على مقدِّمتِه خالدَ بن الوليد ، وعلى مُجنِّبَتيه عمرَو بنَ العاص وأبا عبيدة ، وانطلقوا قاصِدين دِمَشْق .

سار خالدٌ حتى أشرف على موضعٍ يقال له الثَّنيَّة ، فوقف هناك ، وركَّزَ رايةَ العُقاب ، فسميت : « ثنيَّةَ العُقاب » ، ثم ارتحلَ منها إلى دَيْر ، وأقام على الدَّيرِ ينتظرُ قدومَ أَبى عبيدة ، فسُمِّىَ ذلك الديرُ فيما بعدُ « دَيْرَ خالد » .

وبلغ هِرقلَ قدومُ خالدٍ على دِمَشْق ، فغضِب ، وجمع رجالَه ، وقال :

هؤلاءَ العَرَبُ قد توجَّهوا إلى الرَّبوة ففتحوها ، فواكَرْباه ! لأنَّ دمشقَ جنَّةُ الشَّام ، وقد سارتْ إليها الجيوش : أَيُّكم يتوجَّه إلى قتالِ العرب ، ويكفينى أمرَهم ، أَعطيتُه ما فتحوه مِلْكا ؟

فقال أَحدُ فرسانهم الشجعان .

ـ أَنا أَكفيك ، وأَردُّهم على أَعقابهم مُنهزمين .

وجهَّزه الملك ، وخرج على رأسِ خمسةِ آلاف فارس ليرُدَّ العربَ عن دِمَشْقَ جنَّةِ الشَّام . وزحف جيشُ الرُّوم على جيشِ خالدٍ كالجرادِ المُنْتشِر . فلمَّا نظر خالدٌ ذلك ، تدرَّعَ بدرعِه ، ثم صرخ فى وجهِ المسلمين ، وقال :

ـ هذا يومٌ ما بعدَه يوم ، وهذا العدوُّ قد زحف بخيلِه ، فدونَكم والجهاد ، فانصُروا اللّهَ ينصرْكم ، وكونوا ممَّن باعَ نفسَه للّهِ عزَّ وجلّ .

هجم المسلمونَ على الرّوم ، ودار القِتال ، وتطايرتِ السِّهام ، ورأى الرُّومُ من العرب شجاعةً

أفْزَعَتْهم ، فانسحبوا إلى دِمَشْق ، وأغلقوا أبوابها ، وراحوا يجمعونَ جموعَهم ، ليستأنِفوا القتالَ بعد أن يُضمِّدوا جروحَهم ، ويُسوُّوا صفُوفَهم .

وأقبلَ أَبو عبيدةَ فى جيشِه ، فأسرعَ خالدٌ إليه يخبره بما كانَ بينَه وبينَ الرُّوم ، وأَقبلَ المسلمون يُسلِّم بعضُهم على بعض ، فلمّا كان الغَد ، ركِب النّاسُ خيولَهم وَتزَّينتِ المواكب ، وزحف أَهلُ دِمَشْقَ للقِتال ، فقال خالدٌ لأبى عبيدة :

ـ إنّ الرُّومَ قد انخذلوا ، ووقع الرُّعبُ فى قلوبهم ، فاحمِل بنا على القوم .

فقال أبو عبيدة :

ـ هذا هو الرأى السَّديد .

ونزل خالدُ بنُ الوليدِ عَلَى البابِ الشّرقىّ ، ونزل أَبو عبيدةَ على باب الجابيةِ الكبير ، ونزل عمرُو بنُ العاصِ والقوَّادُ الآخرونَ على بقيَّةِ أَبوابِ البلد ، ونصبوا المجانيقَ والدَّبّابات . واستمرَّ الحِصار ،

وراحت الشُّهور تمرّ والرُّومُ فى حصونِ المدينةِ يقاومون ، ويُرسلونَ إلى ملكهم هرقل ، الذى كان بحمص ، يطلبونَ المَدَد ، فأرسلَ إليهم خيولا لتُغيثَهم ، ولكنَّ جيشَ المسلمينَ ، الذى وقف بين حمصَ ودِمَشْقَ ، هزم المدد ، فوقع أَهلُ دِمشقَ فى حَيْرَةٍ شديدة .

٢

اشتدَّ الحِصار ، ولكنْ لم يدبَّ الضعفُ فى الرُّوم المتحصنينَ فى الحصون ، كانوا ينتظرونَ الشِّتاء ، وكانوا يأمُلونَ أَن ينفضَّ العرب أَبناءُ الصَّحْراء عن حصارهم إذا اشتدَّ البرد ، فقد كانوا يعتقدون أنهم لا يستطيعونَ احتماله . وجاء الشِّتاءُ ببرده الشديد ، وظلَّ المسلمون على حصارِ دِمَشْق . وانقضى

الشِّتاء ، وأَقبل الرَّبيع ، فضعُف الرُّوم ، وتيقَّنوا أَنَّ المسلمينَ لن يرجعوا عن دِمَشْقَ حتى يفتحوها ، ويستولُوا عليها . وأَراد قائدُهم أَن ينفُخَ فيهم الحماسة ، فوقف بينهم وقال لهم :

ـ إنه قد طاف عليكم قومٌ لا أَمانَ لهم ، وقد أَتَوْا يسكنونَ بلادكم ، فكيف صَبَرتُم على ذلك ، وعلى هتكِ الحريم ، وسبيِ الأولاد ، وتكونَ نساؤكم جوارِىَ لهم ، وأولادُكم عبيدًا لهم ؟

فقالوا له :

ـ ها نحن بين يَديْك ، وقد رضينا بما رضيتَ لنفسِك ، فإن أمرتنا بالخروجِ خرجنا معك ؛ وإن أمرتنا بالقِتال قاتلنا .

ـ إنى قد عزمتُ على أن أهجُم عليهم الليلة ، فإن اللَّيل مَهيب ، وأنتم أخبرُ بالبلدِ من غيرِكم .

ـ حُبًّا وكرامة .

وراح القائدُ يفرِّق جنودَه ، ففرَّق القوم على الباب الشرقيِّ فرقَة ، وعلى باب الجابيةِ فرقة ، وعلى كل بابٍ جماعةٍ .

وفى سكون الليل فُتحتِ الأبواب ، وتسلَّل الرُّوم ليقتلوا العربَ وهم نائمون ، ولكنَّ المسلمينَ كانوا فى يقَظَة ، فلما رَأَوْا قدومَ الرُّوم ، أيقظَ بعضهُم بعضا ، وتواثب الرِّجال من أماكِنهم كالأسود ، فتقاتل القومُ فى جُنح الظَّلام ، وأسرع خالدٌ إلى جنوده وهو يصيح :

ـ أبشروا يا معاشرَ المسلمين ، أتاكم الغوثُ من ربِّ العالمين ، أنا الفارسُ الصِّنديد ، أنا خالدُ بنُ الوليد .

وعلا الرومُ الأسوار ، وراحوا يَرْمونَ المسلمينَ بالنِّبال ، واستمرَّ القتالُ فى الليل ، وكَانت ليلةً مقمرة ، فقُتلَ من الرُّومِ خلقٌ كثير ، ولم يستطيعوا

صبرا ، فانسحبوا إلى المدينة ، وأغلقوا أبوابَها خلفهم .

واجتمع كبارُ أهلِ دِمَشقَ إلى قائدِهم ، وقالوا له :

ـ أيها السيِّد ، إنا قد نصحناك ، فلم تسمعْ لقولِنا ، وقد قُتلَ منا أكثر النّاس ، فصالحْ ، أصلحُ لك ولنا ، وإن لم تصالحْ صالَحْنا ، وأنتَ وشأنَك .

فقال لهم :

ـ يا قومُ أمهلونى حتى أكتبَ إلى الملك .

٣

اشتدَّ الأمرُ على أهلِ دِمشْق ، فأرسلوا إلى خالدٍ أن أمهلْنا ، فأبى خالدٌ إلاّ القِتال ، وتحدَّثَ أهلُ دِمَشْقَ فى أمرِ الصُّلحِ فقالوا لرجلٍ من حكمائهم :

ـ كيف الرَّأْىُ عندَك ، فنحنُ نعلُم أَنَّ هـذا الأمـيرَ الذى على البابِ الشَّرْقىّ (خالد بن الوليـد) رجـلٌ سفّاكٌ للدِّماء ؟

فقال الرجل :

ـ إذا أردتُـم تقـارُبَ الأمـر ، فـامْضُوا إلى الـذى علـى بـابِ الجابيـةِ (أَبـى عبيـدة) ، وليتكلـمْ رجـلٌ يعرف العربيةَ ويقول :

« يا معشرَ العـرب ، الأمـانَ حتى نـنزِلَ إليكـم ، ونتكلَّمَ مع صاحِبكم » .

وصعِد رجلٌ من الرُّومِ يَعْرِف العربيَّة ، على سورِ المدينة ، وصاح يطلبُ الأمان ، فأرسل إليه أبو عبيدةَ أبا هريرةَ صاحبَ رسولِ اللّه ، فقال :

ـ لكم الأمان .

ـ أنا أبو هُرَيْرَة ، صاحبُ رسول اللّـه ﷺ ، ولـو أنَّ عَبيدًا لنـا أَعطَوْكُـمُ الأمـانَ والذِّمـام ، ونحـن فـى

الجاهليةِ لِمَا غَدَرْنا ، فكيفَ وقـد هدانـا اللّـه إلى دينِ الإسلام !

وذهب وفدٌ من الروم إلى أبـى عبيـدة ، ليتكلّمـوا فى أَمرِ الصلح .

٤

ووُلد لبطريقِ دمَشْقَ مولودٌ فى هذه الليلة ، فـأعدَّ وليمةً فاخرة ، دعـا إليهـا الجنـود ، فأكلوا وشربوا وتعبوا ، فناموا عن مواقِعهم ، وكَان خالدُ بنُ الوليـدِ يرقُبُ حركاتِهم ، ينتظرُ فرصةً يَغفُلونَ فيها ، ليهجُمَ عليهم ، ويفتحَ مدينتَهـم ، التـى دام حصارُهـا أَربعـة أشهر ، فلما لم يجدْ جنودَ الرُّومِ على أسوارِ المدينـة ، أرسَلَ بعضَ عيونِه ، ليرَوْا مـا الخـبر ؟ فعـادوا إليـه ، وأخبروه أنَّ الجنودَ مشغولون بوليمة البِطريق .

وأعدَّ خالدٌ سلاليمَ من حبال ، ودعا بعض أبطالِ المسلمين ، وقال لهم :

ـ اتبعونى .

وقال لجيشه .

ـ إذا سمِعتم تكبيرَنا فوق السُّور ، فارقَوْا (فاصعدوا) إلينا .

وكان حولَ الحصنِ خندقٌ به ماء ، فقطع خالدٌ وأبطالُ المسلمينَ الخندقَ سباحة ، حتّى إذا بلغوا الحصنَ نصبوا السلالم ، وقد أثبتوا أعاليها بالشُّرُفات ، وصعدوا فيها ، حتى إذا استوَوْا على السُّور ، رفعوا أصواتَهم :

ـ اللّه أكبَر .... اللّه أكبَر .

وسمِع جيشُ خالدٍ التكبير ، فأسرعَ المسلمون إلى الحِصن ، وصَعِدوا فى تلك السَّلالم ، وهبط خالدٌ

وأَصحابُه من السُّور إلى البوابين فقتلوهم ، وقطع خالدٌ وأصحابُه أغاليقَ البابِ بالسُّيوف ، وفتحوا الباب عَنْوَة ، فدخل المسلمونَ من البابِ الشرقيِّ كالموج ، وراحوا يقتلون من وجدوه ، فإذا بالمسلمينَ الذين دخلوا من الأبوابِ الأخرى يقولونَ لهم :

ـ إنّا قد أمّنّاهم .

فقال خالد :

ـ إنِّى فتحتُها عَنوَة .

فأرسل إليه أبو عبيدةَ أن يكُفَّ عن القتال ، فقد صالح الناسَ وأَمَّنهم ، ولما كان أبو عبيدةَ هو الأمير ، فقد سمِع خالدٌ لأمرِه ، وأجرى الصُّلحَ على الجانبِ الذى فتحه .

وفُرِضَت الجزيةُ على أهلِ دِمشْقَ يدفعونَها للمُسلمين ، على أَنْ تُترَكَ لهم حُرِّيَّةُ العِبادة ، وعلى

أن يتولّى المسلمونَ حمايةَ مدينتهِم وأموالِهم . واستقرَّ المسلمونَ بعاصمةِ الشام ، وجلت عنها حاميةُ هِرقْل ، وراح المسلمونَ يتبعونَ الرُّوم ، فلم يجد هِرَقلُ بدًّا من أن يفرَّ إلى القُسْطنطينيَّة ، وأن يترك الشَّامْ للعرب .

القصص الديني

الحلقة الثالثة
قصص الخلفاء الراشدين



تأليف
عبد الحميد جودة السحار

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

بسم الله الرحمن الرحيم

« وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُـورِ مِـنْ بَعْـدِ الذِّكْـرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ » .

(قرآن كريم)

١

هَزَمَ الفُرْسُ المسلمينَ فى موقِعة الجِسر ، وفرَّ المسـلمون إلى المدينة ، فعزَّ ذلك على عُمرَ أميرِ المؤمنين ، فنادَى فى المدينة : «الصلاةَ جامعة » ، وكان هذا هو النّـداءُ كلَّما أراد الخليفـةُ أن يجمعَ المسلمينَ لأمرٍ عظيم ، فاجتمع الناسُ إليه ، فأخـبرهم أنه عازمٌ على أن يخرجَ بنفسه لقتالِ الفُرس ، فقال النّاس :

ـ سرْ وسِرِ بنا معك .

فقال لهم عُمر :

ـ استعِدُّوا وأعِدُّوا ، فإنى سائرٌ إلى أن يجيءَ رأىٌ هـو أمثـلُ (أفضلُ) من ذلك .

وأَرسل عمرُ إلى أهلِ الرَّأىِ والشورَى ، ودخل عليـه علـىُّ ابنُ أَبى طالب أَوَّلَ من دخل ، فقال له عمر :

ـ ما ترى يا أَبا الحسن ، أسيرُ أم أبعث ؟

ـ سرْ بنفسِك ، فإنه أَهْيَبُ للعـدوّ ، وأَرْهَـبُ لـه . ودخـل عليه عبدُ الرحمنِ بنُ عوْف ، فقال له عُمر :

ـ أَسيرُ أم أَبْعث ؟

ـ فُديتَ بأَبى وأُمى ، أَقمْ وأبعثْ ، فإنّه إن انهزم جيشُك ، فليس ذلك كهزيمتِك ، وإنك إن تُهزَم أَو تقُتَل ، يكفُرِ المسلمون ، ولا يَشهدُوا أن لا إله إلا اللهُ أبدا .

وخرج عبدُ الرحمن ، ودخل عثمانُ بنُ عفّان ، فقال له عمر :

ـ يا أَبا عبدِ اللهِ ، أشِرْ عليَّ ، أَسيرُ أم أُقيم ؟

ـ أَقمْ يا أَميرَ المؤمنين وابعث الجيوش ، فإنّى لا آمنُ إنْ أتى عليك آت ، أَن ترجِعَ العربُ عن الإسلام ، ولكن ابعثِ الجيوش ، ودارِكْها بعضَها على بعض ، وابعث رجلا له تجربةٌ بالحربِ ومَضربِها .

ـ ومن هو ؟

ـ عليُّ بن أبى طالب .

ـ فالقَهُ وكلّمه ، وذاكِرْه ذلك ، وانْظَرْ أَتراهُ مسرعا إليه أَمْ لا ؟

وخرج عثمانُ وقابل عليًّا . فذاكره ذلك ، ولكنَّ عليًّا أَبى ذلك وكرِهه ، فعاد عثمانُ وأَبلغ عمرَ رفضَ عليّ ، وَاجتمعَ

أَهل الرأىِ ثانية ، يبحثون فيمن يُولّونَه حرب الفُرس ، فقال بعضُ الحاضرين :

ـ قد وجدتُه .

ـ فمن ؟

ـ الأسدُ عادِيا .

ـ من هو ؟

ـ سعدُ بن أَبى وقّاص .

فقال عمر :

ـ أَعلم أَنَّ سعدا رجلٌ شجاع ، ولكنّى أَخشى أَن لا يكونَ له معرفةٌ بتدبيرِ الحرب .

فقالَ عبدُ الرحمنِ بنُ عوف :

ـ هو على ما تصِفُ من الشّجاعة ، وقد صَحِبَ رسولَ اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم وشهِد بدْرا ، فاعهَد إليه عهدا ، وشاورْنا فيما أردتَ أن تُحدِث ، فإنه لنْ يخالِف أمرَك .

٢

أصبح سعدُ بنُ أبى وقّاص قائدَ الجيوشِ الذّاهِبة لقتالِ الفرس ، فسار حتى نزل القادِسيّة ، فأسرع أهلُ العراقِ إلى كِسْرَى يَزْدَجِرْد ، يستغيثونَه ويُخبرونَه بنزولِ العرب ، وتفرُّقِ سَراياهم للغارة ، وطلبوا منه النجدةَ والعون ، فأرسل فى استدعاءِ رُسْتمَ قائدِ جيوشِه ، وقال له :

ـ جاء العرب لمناجزتنا فى عُقْرِ دارِنا ، وإنى رأيت ، وَأَنْتَ قائِدُ قُوّادِ الدَّولة ، وصاحبُ الرَّأْى فيها ، أن أُوَجِّهك فى هذا الوجه ، فأنت رجلُ فارسَ اليوم ، وترى ما حلَّ بالفُرس ، مما لم يأتِهم مثلُه .

وأخذ رُسْتُمُ يستعِدُّ لقتال المسلمين ، فجعل على مقدَّمَتهِ الجالينوسَ فى أربعين ألفا ، وعلى مَيْمَنَتِه الهُرْمُزان ، وعلى مَيْسرَتِه مَهران .

وتقدَّمتْ جيوش رُستَمَ حتى نزلت بساط ، بين المدائن والقادسيَّة ، بمائةِ ألفِ مقاتلٍ أو يزيدون ، وراح سعدٌ ينتخب من يرسلهم إلى يَزْدَجِرْد ، ليدعوه إلى الإسلام أو الجزية ، قبل

أن يأمُرَ بالحرب ، فانتخب نفرا من قادةِ المسلمين ، وأَرسلهم إلى رُسْتَم .

دخل الوفدُ الإسلاميُّ على رستم ، وطلبوا منه مقابلَة يَزْدَجِرْد ، لعرض شروطِهم عليه قبل القتال ، ولما كان رُسْتم لا يرغب فى القتال ؛ فقد أَرسلهم إلى المدائن ، عاصمةِ فارس ، فساروا فى طرقاتها مرفوعى الرُّءوس ، وخَرج النّاسُ ينظرون إلى أشكالهم وأرديتِهم على عواتقِهم ، وسياطِهم بأيديهم ، والنِّعالِ فى أرجلهم ، وخيولِهم الضعيفةِ تَخْبط على الأرضِ بأرجلِها ، وجعل الناس يتعجبون منهم غايةَ العجب ، وَيتساءلون : كيف تَمكَّنَ مثلُ هؤلاءِ من قهرِ جيوشهم مع كثيرِ عَدَدِها وَعُدَدِها !!

جلسَ الملكُ يَزْدَجِرْدُ على عرشِه ، يحوطُه خدمُه وحشمه وأَعيانُ القوم ، وأَذِنَ للوفدِ بالمثول ، فدخلوا جميعا شامخى الأنوف ، وجيء بالتّرجمان ، فقال له يَزْدَجِرْد :

ـ سلْهم ما جاء بهم ؟ وما دعاهم إلى غزونا ، وَالتَّوغُّل ببلادنا .

ـ نحن ندعوكم إلى ديننا ، وهو دينٌ حسَّن الحسَنَ وقبَّح القبيح كلَّه ، فإن أبيتُم ، فأمرٌ من الشَّرِّ هو أهوَنُ من آخرَ شرّ منه : الجزاء ، فإن أبيتُم فالمناجَزة (القتال) ، فإن أجبْتم إلى ديننا خلَّفنا فيكم كتابَ الله ، وأقمناكُم عليه ، على أن تحكُموا بأحكامِه ، ونرجِعَ عنكم ، وشأنَكم وبلادَكم ، وإن اتَّقيتُمونا بالجزاء قَبِلنا ومنعناكم ، وإلا قاتلناكم .

وثار يَزْدَجِرْد ، فما كان يُصَدِّق أنَّ العرب ، الذين كانوا أشقَى أُمَّةٍ فى الأرض ، قبل أن يُرسِلَ الله إليهم محمَّدَ بنَ عبد الله ليرفعَهم من الذُّلِّ إلى الكرامةِ والعزة ، يَعرِضون عليه أن يترُكَ دينَه ، ليدخلَ فى دينٍ جديد ، أو يدفعَ لهم الجِزية ، أو يستعِدَّ للحرب والقتال ، فقال فى غضب :

ـ لولا أنَّ الرُّسلَ لا تُقتَلُ لقتلتُكم ، لا شيءَ لكم عندى .

٣

خرج رُسْتَم من مُعسكره ، وسار حتى بلغ قنطرةَ القادِسيَّة ، فتأمَّل جيشَ المسلمين ، فرأى عسكراً كثيرا ، فأحسَّ ضيقا ، وأقبل اللَّيل ، فدخل سريرَه لينام ، ولكنَّ النوَم جافاه ، وأخذ يتقلَّب فى فِراشِهِ ضَجِرا ، وهو يفكّر فى العرب الّذين جاءوا لقتالِهم . وأخيرا نَام ، فرأى فيما يرى النائمُ مَلَكاً وأعرابيًّا يدخلانِ عسكرَ الفُرس ، وعلِم أنَّ الأعرابىَّ هو عمرُ خليفةُ المسلمين ، ثم رأَى الملَكَ يتّجهُ إلى سلاحِ فارس فيختِمه ثم يجمَعه ، ويدفعُه إلى عمر ، وقام من نومِه مرعوبا ، ولما هدأَ نام ثانية ، فرأى فى الحُلم أنَّ أعرابيًّا يدخلِ عليه ويذبحُه ، فهبَّ من نومه مفزوعا .

وجاء يومُ القتال ، فأرسل رستمُ رسولَه إلى سعدِ ابن أبى وَقّاص ، يقول له :

ـ إما أَن تعبُرَ إلَينا أَو تترُكنا نعبُر .

فقال له سعد :

ــ بل اعبرُوا أنتم .

وعبر الفُرس ، وتـأهَّبُ الجيشـان للقتـال ، واهتـمَّ يَزْدَجـرْدُ بأمرِ هذه الوَقْعةِ اهتمامـا عظيمـا ، ومـا كـان يُطيـقُ أن ينتظـرَ الأنباءَ حتى تصلَ إليه ، بل شاءَ أن تبلغَـه أوَّلا فـأوَّلا ، فوضـع رجُلا على باب إيوانه ، ووضـع آخـرَ خـارجَ الـدّار ، ووضـع ثالثا على بُعدٍ من الثانى ، بحيثُ يسمعُ ما يهتِـف به ، ووضـع رابعـاً وخامسـاً وسادسـاً وهكـذا ، حتـى بلـغ الرّجـالُ ميـدانَ القتال ، فلما نزل رُسْتَمُ ، صاح منْ فى الميدان :

ــ نزل رُسْتَمُ :

فصاح من يليه .

ــ نزل رُسْتَم :

واستمر هذا الخبرُ ينتقـل مـن رجـلٍ إلى رجـل ، حتّـى بلـغَ مسامعَ يَزْدَجِرْد ، وأخذ مَنْ فى المَيدان يصِف ما يحدُثُ أمامَه ، والرِّجالُ يتصايحون بما يصِف ، فَراح يصيح :

ــ رُسْتَمُ يلبَس دِرْعين .. رُسْتَمُ يُعَبِّيءُ فى القلبِ ثمانيةَ عشَر فيـلا ، عليهـا الصنّـاديقُ والرِّجـال .. القنطـرةُ بـين خيلنـا والرِّجال .. وخيولِ المسلمين .... الأعداءُ يأخذونَ مصافَّهم .

واستمرَّ مَن فى المَيدانِ يصفُ ما يحدُث أمامه ، فتبلغ الأنباءُ المَلك يَزْدَجِرْدَ وهو فى قصره .

وهتف سعد :

ــ الله أكبر .

وكبَّر المسلمونَ خلفَـه ، وتزاحفـوا ليقـاتِلوا فـى سـبيلِ الله صفًّا ؛ كأنهم بنيانٌ مَرْصوص .

راح المسلمون يطعَنونَ الفِيَلَة ، ولكنَّ الفِيَلَـة كـانت تُشيع الفوضَى بينهم ، وصاح صائح :

ــ يا معشرَ الرُّماة . سَدِّدوا سهامكم إلى رُكبانِ الفِيَلة .

وأخذت سهامُ المسلمينَ تتطايرُ فى الجوِّ ، وتثبتُ فى صدورِ الرِّجال الرّاكبينَ الفِيَلة ، وتسلَّل بعضُ العـرب حتـى أصبحـوا خلف الفِيَلة ، فـأخذوا بأذنابهـا ، وقطَّعـوا الحبـالَ التـى تُثبِّـتُ التّوابيتَ على ظهورها ، فسقطَ مـن فـى التوابيـت ، وراحـتِ الفِيَلَةُ تدوس مَنْ وقع ، وشاع الاضطرابُ فى نفوسِ الفُرس ، واشتدَّ القِتال ، حتى إذا ما غربتِ الشمس ، هدأتِ المعرَكة ، ثم توقَّف الفريقانِ عن القتال ، وراحا يستعدَان لاستئنافِها مـع الصباح .

وأصبح الصباح ، وتأهَّب المسلمونَ للقتال ، وإذا بهم يلمحون فارساً يطوِي الأرضَ طيّا ، فلما اقترب من المسلمين صاحوا فرحين :

ـ إنَّه القَعْقَاعُ بنُ عَمْرو . إنَّه من قال أبو بكر عنه : لا ينهزمُ جيشٌ فيهم مثلُ هذا .

وتقدَّم القَعْقاعُ من سعد ، وقال له :

ـ أرسلَ عمرُ إلى أبي عبيدةَ كتابا ، بصرفِ أهلِ العراقِ أَصحابِ خالدٍ مَدداً لك ، فسرَّح أبو عبيدةَ ستة آلاف ، وأمَّرَ عليهم ابنَ أخيك هاشمَ بنَ عُتْبَة ، فأمَّرني هاشمٌ على مُقدَّمَتِه ، فرأيتُ أن أُسرع ، لأبشِّرَكم بالمَددِ العظيم .

فقال سعدٌ في سرور : إنه النصرُ إن شاء الله .

وارتفعتْ تكبيرةُ سعدٍ تشقُّ الفضاء ، ودارتِ المعرَكة ، وانقضى النهار ، وأقبل الليل ، ولكنَّ نار المعرَكة ظلَّتْ مشبوبة . رأى المسلمون انتصارهم الباهر ، فعزموا على أن يستمرّوا في القتالِ حتى يتم لهم النصر . ودارت المعرَكة ، وانتصَفَ الليل وقصف السُّيوف يُدوّي ، ويمزّقُ السكون .

وأشرقتِ الشمس ، ووصلَ مددُ المسلمين ، وهَجَموا على الفِيَلة يُسدِّدونَ رماحَهم إلى عُيونها ، فكانت الفِيَلةُ تضربُ على غيرِ هُدى ، فإذا اتجهتْ إلى صفوفِ المسلمين نَخَسُوها ، فتعودُ إلى صفوف الفُرس فينْخُسونَها ، واستمرتْ كذلكَ بين العسكرين، وأخيرا يممتْ صوْبَ النّهرِ ونَزَلتْ فيه ، وخلا الميدانُ من الفِيَلة ، فَحَمِد المسلمونَ الله ، وراحوا يقاتلونَ قِتالَ الأبطالِ الصّناديد . واستمرَّتْ المعركَة طوالَ اللّيل ، وبدأ الضعف يدِبُّ في جيشِ رُسْتَم ، فراح المسلمونَ يقتُلون الفُرس . ورأى رُسْتَم نفسَه أمام بطلٍ من أبطال المسلمين ، والموتُ يُطلُّ من سيفِه ، فجرى رُسْتَم حتى بلغَ النَّهْر ، فألقى نَفْسَه فيه ، وأخذ يسبَح ، فاقتحم المسلمُ النهر ، وأمسكَ برُسْتَم وخرج به إلى الشاطىء ، ثم تناول سيفا وضربَه به ، ثم صاح :

ـ إليّ ... إليّ ! قتلتُ رُسْتَمَ وربِّ الكعبة ... قتلتُ رسْتم .

رأى الفُرسُ ما حلّ برُسْتَمَ ، فدبّ الذُّعرُ بينهم ، وانهزموا ، وراحوا يعبُرونَ النَّهْر وسيوفُ المسلمين تعمَل في

رقابهم ، وانتهتْ موقعةُ القادسيَّة بانتصارِ المسلمينَ نصرًا مبينا .

وتكدَّسَت الغنائم ، فأخذ سعدٌ فى تقسيمِها ، فاحتجزَ الخُمْسَ لأميرِ المؤمنين ، وقسَّمَ الباقى على النَّاس ، فناهم خيرٌ كثير .

٤

كان عمرُ بنُ الخطَّابِ يخرجُ كلَّ يومٍ من دارِه ، ويسيرُ فى طُرقاتِ المدينةِ حتى يبلغَ خارجَها يَتَنَسَّمُ أخبارَ المعرَكةِ الدَّائرة بين المسلمينَ والفُرس ، كان يسألُ القادمينَ عن الأخبار ، ولمح رجُلاً على ناقةٍ يسيرُ مسرعاً صوْبَ المدينة ، فأسرع عمَرُ إليه يسأله .

ـ مِنْ أين ؟

ـ مِنَ القادِسيَة .

ـ يا عبدَ الله حدِّثْنى .

ـ هزم اللهُ العَدوّ ، وانتصر المسلمون ، وقُتِل رُسْتَمُ والجالينوسُ وقوَّادٌ كثيرون ، وكانت معرَكةً ما شهِدَ العربُ مثلَها ، وغنمنا غنائمَ لا حصْرَ لها .

واستمرَّ القادمُ يصف ما دارَ فى القادسيَّة وهو على ناقته ، وعمرُ يسيرُ على قدميه ويستَخْبِرُه ، حتى بلغا المدينة . فراح عُمر يسلِّمُ على الناس ، فيردُّ الناسُ عليه السَّلام : « وعليكَ السَّلامُ يا أميرَ المؤمنين » .

فنزل الراكبُ عن ناقتِه ، وتقدَّم من عمر ، وقال :

ـ فهلاّ أخبرتَنى رحِمك الله أنك أميرُ المؤمنين ؟

فقال له عمر :

ـ لا عليك يا أخى .

ـ أنا سعدُ بن عُمَيلةَ الفَزارِى ، قد بعثَنى سعدٌ إليك بكتاب .

فتناول عمرُ الكِتاب ، وذهب إلى المسجد ، وقام فى النّاس ، فقرأ عليهم .

« أما بْعد ، فإنّ الله نصرَنا على أهلِ فارس . »

فسَرَتْ فى المدينةِ مَوْجةُ غِبطةٍ وسرور .

القصص الديني

الحلقة الثالثة

قصص الخلفاء الراشدين



تأليف

عبد الحميد جودة السحار

الناشر

مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

بسم الله الرحمن الرحيم

« كَمْ تركُوا منْ جَنّاتٍ وَعُيُون ، وَزُرُوع وَمَقَام كَرِيم ، وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيها فَاكِهِينَ ، كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخرِين » .

(قرآن كريم)

(سورة الدخان)

١

كانت جيوشُ المسلمينَ تحاربُ الرّومَ فى الشام ، فكان أبو عبيدةَ وخالدُ بنُ الوليدِ فى شُغل بفتحِ حِمْصَ وحلبَ وأنطاكية . وتقدَّم عَمرُو بنُ العاص ، وحاصر بيتَ المقدِس ، وكان قائدُ جيوشِ الرّومِ أرْطَبُون ، وكان داهيةً من دُهاتِهِمْ ، فوجد عمرٌو فى قتالِه تعبًا شديدا ، فكتب إلى عمرَ يصف له ما يُلاقيهِ من شِدَّة ، ووصف له دَهاءَ أرطبون ، فقال عمرُ بنُ الخطّاب لمن حولَه : « قد رميْنا أرْطَبونَ الرّوم بأرْطَبونِ العرب ، فانظروا عمَّ ينفرج ».

كان عمرٌو داهيةً من دُهاةِ العرب ، وكَان أَرْطَبونُ داهيةً من دُهاةِ الرّوم ، فقال عُمَر : إنّ الحربَ تدور الآن بين داهيةِ العربِ وداهيَةِ الرّوم ، فلننظرْ من منهما ينتصر !

كان عمرُو بنُ العاصِ يُرسل الرُّسلَ للتَّفاوض في الصُّلح ، وأمَرَهمْ أن يُوافوه بمداخِل العدوّ ، ومعرفةِ كلِّ شيء عنه ، حتى يستفيدَ بما يجمعُ من معلوماتٍ في حربِه ، ولكنَّ الرُّسُلَ لم يَشْفُوا غليلَه ، فرأى أنْ يحتال ، وأن يذهبَ بنفسِه لمقابلةِ أَرْطبون ، دون أن يكشِفَ شخصيَّته .

وتنكَّرَ عمرٌو ، وسار إلى أرْطَبون ، ودخل عليهِ كأنَّه رسول ، وجَعلَ عمرٌو وأرْطبونُ يتحدَّثان ، فداخلتْ أرْطبونَ الرّيبةُ في شخص محدِّثه ، وجَدَه واسعَ الأُفق ، غزيرَ المعرفة ، فقال في نفسِه : «واللّه إنَّ هذا لعمْرٌو ، أو أنَّه الذي يأخذُ عمرٌو برأيه، وما كنتُ لأُصيبَ القومَ بأمر أعظمَ عليهم من قتله ! » .

ثم دعا أرطبونُ جنديًّا من رجال حرسِه ، فأسرَّ إليه : إذا مرَّ العربيُّ بمكان كذا ، أن يقتُلَه . وفطَن عمرٌو إلى أنَّ في الأمرِ خَديعة ، وأنَّ أرْطبونَ يُدَبِّرُ قتلَه ، فقال لأرطَبون :

ـ قد سمِعتَ منّي وسمِعتُ منك ، فأمَّا ما قُلتَه فقد وقع مني موقِعا ، وأنا واحدٌ من عشرة ، بعثنا عُمرُ بنُ الخطّاب مع هذا الوالي لنُكاشِفَه ، ويُشهدَنا أمورَه ، فأرْجعُ فآتيك بهم الآن ، فإنْ رَأَوْا في الذي عرضتَ مثلَ الذي أرَى ، فقد رآهُ أهلُ العسْكرِ والأمير .

وطمِع أرْطبونُ في أنْ يقتُلَ العشرةَ الذين يُشيرونَ على الأمير ، فأرسل إلى الحارسِ الذي أسرَّ إليه بقتلِ العربيِّ أن يترُكَه ، وخرج عمْرٌو مُسرعا بعد أنْ خَدَعَ أَرْطَبونَ الرّوم ، ونجا بنفسِه من القتل ، وعرَف أرطبونُ بعدَ ذلكَ ، أن الذي كانَ يحادثُه هو عَمرُو بنُ العاصِ نفسُه ، وأنه خدعَه لمَّا قال له : إنَّه واحد من عشرة يستشيرُهم الأمير ، وإنّه راجعٌ ليأتِيَه بهم ، فقال أرْطبونُ في حَسْرة :

ـ خدَعني الرَّجُل ، هذا أَدْهَى الخلق .

وبلغ عُمَرَ بنَ الخطّاب ما حدث ، فقال :

ـ غلبَهُ عمْرو ، للّهِ عمرو !

٢

كان حِصارُ المسلمينَ لبيتِ المقدسِ فى فصلِ الشِّتاءِ والبرد ، فأقاموا عليها أَربعةَ أشهر فى أشدِّ قتال ، مع الصبرِ على المطرِ والثَّلج ، ورأى عَمرٌو أن يطلُبَ من عُمرَ بنِ الخطّابِ مَدَدا ، فكتبَ إليه ، فلما جاء كتابُ عَمْرٍو إلى أميرِ المؤمنين ، قرأه على النّاس ، وسألهم : أيخرُج بنفسِه ، أم يُرسلُ الجنود ؟ فقال له عثمانُ بنُ عفّان :

ـ لا تركبْ إليهم ، ليكونَ أحقرَ لهم .

وقال له عليٌّ بنُ أبى طالب :

ـ سرْ إليهم ، فقد أصابَ المسلمينَ جَهدٌ عظيم ، من البردِ والقِتال وطولِ المقام ، فإذا أنت قَدِمْتَ عليهم ، كان لك وللمسلمين الأمْنُ والعافيةُ والصلاحُ والفتح ، ولستُ آمَنُ أن ييأَسُوا منك ومن

الصُّلح ، ويُمسكوا حصنَهم ، ويأتِيهُم المدَدُ من بلادِهم وطَاغيتِهم ، لا سيمَّا وبيتُ المقدسِ مُعظَّمٌ عندَهم وإليه يَحُجّون .

مال عمرُ إلى رأيِ عليٍّ بنِ أبى طالب ، فقد رأى فى سقوطِ بيتِ المقدسِ القضاءَ على دَوْلَةِ الرّومِ فى الشّام ، فاستخلفَ عليَّ بن أبى طالبٍ على المدينة ، وكتب إلى قوّاده أن يقابلوهُ فى الجابيَة ، القريبةِ مِنْ بيتِ المقدس .

وركِب عُمر بعيرًا له ، وسار ومعه جماعةٌ من الصَّحابة ، ليس معه إلاّ قِربةٌ مملوءَةٌ ماء ، وجَفنةٌ للزّاد ، وكساءٌ من الصّوف ، يجلس عليه إذا ركب ، ويفرشُه تحتَه إذا نام ، وعليه مُرَقَّعةٌ من صوف ، فيها أربعَ عشرةَ رُقعةً بعضُها من أديم !

ودخل عمرُ الشَّام ، تلوح صلعتُه للشمس ، ليس عليه قَلنسُوةٌ ولا عِمامة ، وراح يتلفَّت حولَه ، فرأى قصورا وبساتين ، فتلا قولَ اللّه تعالى : « كم

تركوا من جنّاتٍ وعُيون ، وزُروع ومَقام كريم ، ونَعمةٍ كانوا فيها فاكهين ، كذلك وَأورثناها قومًا آخرين » .

وأقبل القُوَّادُ يستقبلون أميرَ المؤمنينَ وعليهم الحرير ، فغضِب عُمر ، وسار إليهم ليحصِبَهم ، فما كان الحريرُ لُبْسَ القُوَّادِ المُتقشِّفين ، فاعتذروا إليه بأن عليهمُ السِّلاح ، وأنَّهم يحتاجون إليه في حُروبِهم ، فسكت عنهم ، ثم راح يصافِحُهم ويعانِقُهم .

وأَقبل المسلمون يُسَلِّمون على عُمر ، ثُمَّ صَلَّى عُمرُ بالمسلمينَ صلاةَ الفجر ، ثم خطبَهم ، فقال :

ـــ أيُّها النّاس ، أَصلِحوا سَرائرَكم تصلُحْ علانيَتُكُم ، واعمَلوا لآخرتِكم تُكفَوْا أمرَ دنياكم .

وجلس مع القوَّاد يُحَدِّثونه بما لَقُوا من الرّوم ، إلى أَن حضرتْ صلاةُ الظُّهر ، فطلب الناسُ من عمرَ أن يطلبَ من بلالٍ مؤذّنِ الرَّسولِ أن يؤذّن ، فما أَذَّنَ بلالٌ بعد موتِ الرَّسول . طلب عمرُ منه أن يؤذّن ،

فقام بلالٌ وأذَّن بصوتِه العذبِ الحَنون ، الذى طالما تردَّدَ فى جَنَباتِ المدينةِ فى عهد مُحَمَّدٍ صلَّى اللّه عليه وسلَّم ، فَهَاج صوتُ بلال الذكرياتِ ، فلما قال : « اللّه أَكبر » ، خشعتْ قلوبُهُمْ ، واقشعرّت أبدانُهم ، فلما قال : « أشهدُ أنْ لا إلهَ إلاَّ اللّه ، وأشهدُ أنَّ مُحَمَّدًا رسول اللّه » ، بكى الناس بكاءً شديدا ، لذكْرِ اللّه وذِكْرِ رسولِه ، وكاد بلالٌ يقطعُ الأَذان ؛ ولكنه استمرَّ وقد شرِقَ بدموعِه ، وبكى عمرُ حتى بلَّ لِحيَته ، وبكى الذين لم يروْا مُحمَّدًا صلَّى اللّه عليه وسلَّم ، لبكاءِ إخوانِهم .

٣

كان عُمر بالجابية ، فإذا بفُرسان مُقْبلينَ فى أيديهم السُّيوف ، فأسرع المُسلمونَ إلى سلاحِهم ، فقال عمر : إن هؤلاءِ قومٌ يستأمِنون .

واقتربَ فُرسان الرّوم ، فإذا بهم رسلُ أُسْقُفِ بيتِ المقْدِس ، قد جاءوا يُصالحون أميرَ المؤمنين .

عرف أَرْطَبُونُ مَقدَمَ عُمَر ، وعرف ما نزل بالرُّومِ على أَيدى العرب ، فانسحب مُستخفِيًا إلى مِصر ، وترك بطريقَ بيتِ المْقدِس يُفاوضُ المسلمين فى تسليمِ المدينة .

طلب البطْريقُ أن يُسلِّم بيتَ المقدِس لعمَرَ أميرِ المؤمنين ، فأمر عمرُ بالرّكوب ، فلما همَّ بالركوبِ على بعيرِه ، وعليه مُرَقَّعَةُ الصُّوف ، قال المسلمون :

ـ يا أميرَ المؤمنين ، لو ركِبتَ غير بعيرِك جوادا ، ولبست ثيابا بيضًا ، لكان ذلك أعظم هَيبتك فى قلوب أعدائك .

فقال عمر : نحن قومٌ أعزَّنا اللّه بالإسلام ، فلا نطلبُ بغير اللّه بّديلا .

واستمرَّ المسلمون يسألونه ويتَلَطَّفون به ، إلى أن قبل أن يخلع مُرقَّعته ، ولبس ثيابا بيضًا ، وركب

جوادًا من جيادِ الرُّوم ، وطرح على كِتفَيه مِنديلا من الكَتّان ، دفعه إليه أبو عُبيدَة ، وسار الجوادُ يتبختَر فى مِشيته ، فلما رأى عمرُ ذلك ، نزل مُسرعا ، وقال : أقيلوا عَثْرَتى ، أقالَ اللّهُ عثرتَكم يومَ القِيامة ، فقد كادَ أميرُكم يهلِك بما دخل قلبى من العُجبِ والكِبر !

وخلع الثَّوبَ الأبيض ، ولبس مُرَقَّعَتَه ، وركِب بعيرَه .

وسار عُمر حتى بلغ بيتَ المقدِس ، ففُتِحَتْ له أبوابُها ، وأسرع البِطريقُ وأهلُ بيتِ المَقْدسِ يُرحِّبونَ بمَقدَمِه ، فقد أمَّنهم على حياتِهم وعلى أموالِهم ، وترك لهم كنائسَهم وصُلبانَهم ، وصالحهم على ألاَّ يُكرهوا على دينهم ، على أن يُعطوا الجزية .

وكان سرورُ أهلِ بيتِ المقدسِ بهذا الصُّلحِ عظيما ؛ فأسرعوا يُحيُّونَ عُمَر ، فلما رآهم عمرُ فى تلك

الحالة ، تواضع للّــه سبحانه وتعـالى ، وخـرَّ سـاجدا على قَتَبِ بعيرِه .

٤

ودخل عمَرُ المسجدَ الأقْصَى ، أوّلَ قبلةٍ للمُسـلمين ، والمكانَ الذى أَسْرَى إليه الرّسول « سبحانَ الذى أسـرَى بعبدِه ليلاً من المسجدِ الحرامِ إلى المسجدِ الأقصى ! » ، وكان اللّيلُ قد أرخَى ستائرَه ، فذهب إلى محرابِ داود ، وظلَّ يُصلّى للّـه ربِّ العالمين . ولما أصبحَ الصباحُ راح يُشاهدُ آثارَ الأنبياء ، فرأى محرابَ داود ، وصخرةَ يعقـوب ، وأطلالَ هيكـل سُليمان ، فشكر اللّه أنْ جعل فتح هذه البلدة المقدّسةِ على يديه.

والتفت عمرُ إلى من حولَه ، وقال :

ـ ارقبُوا لى كَعْبا .

كان كعبُ الأحبارِ يهوديًّا ثُمَّ أسلَم ، وكَان يعرِف العاداتِ اليهودية ، فلما جاء كعبٌ قال له عُمر :

ـ أينَ ترى أن نَجعلَ المُصلَّى ؟

فقال كعب : إلى الصَّخْرة .

فلم يعجبْ هذا الرأىُ عمر ، فقد كَان اليهودُ يقدِّسونَ صخرةَ يعقوب ، فقال :

ـ ضاهيتَ اليهودَّية يا كعب ... بل نجعَلُ قبلتَه صدرَه ، كما جعل رسولُ اللّه صلَّى اللّهُ عليه وسلَّمَ قبلةَ مساجدِنا صُدورَها ، فإنا لم نؤمَر بالصخرة ، ولكنَّا أُمِرنا بالكعبة .

فجعل قبلةَ المسجدِ الأقصى صدرَه ، ثم قام من مُصَلاّه إلى كُنَاسة كانت الرُّومُ قد دفنتْ بها بيتَ المقدسِ فى زمان بنى إسرائيل ، فراح يُزيلها ، وقال لأصحابه :

ـ اصنَعوا كما أصنع .

ولم يزلْ عمرُ والمسلمونَ يزيلون الكُناسة ، حتى زال كلُّ ما على الصخرة ، فقد كانت الموضعَ الذى أُسْرى برسول اللّه إليه .

وتمَّ لُعمرَ فتحُ بيتِ المقدِسِ ، فعاد إلى المدينة ، فخفَّ الناسُ إليه يستقبلونَه فرحينَ مستبشرين .

٥

انتصر المسلمونَ فى العراقِ وفى الشَّام ، فتدفَّق المالُ على المدينةِ تدفُّقًا عظيما ، ولم يكنْ هناك أماكنُ يُحتفظ بها ، فكان يوضع فى المسجد ويُقام عليه حرسٌ حتى يُقسَّمَ بين المسلمين .

كان أبو بكرٍ يَقْسِمُ الأموالَ التى تصل إلى بيتِ المال بالتَّساوى على المسلمينَ كافَّة ، ولكنْ لما تولَّى عُمر الأمر ، رأى أَنَّ تسويةَ المسلمين جميعا بعضِهم ببعض ، ظلمٌ بالسّابقينَ فى الإسلام ، فكيف يُسَوَّى بين مَن أسلَمَ مع رسولِ اللّه وحارب معه ، ومن أسلَم بعدَ ذلك وكان يحاربُ رسولَ اللّه ؟ فقام يخطب النَّاس فقال : واللّه ما أحدٌ أَحقَّ بهذا المالِ من أحد ، وما أنا بأحقَّ به من أحد ، واللّهِ ما من

المسلمينَ من أحدٍ إلاّ وله فى المالِ نصيب ، إلاّ عبدا مملوكا ، ولكننا على منازلنا من كتابِ اللّهِ تعالى ، وقَسْمِنا من رسولِ اللّه ، فالرّجلُ وبلاؤه فى الإسلام ، والرَّجُل وقِدَمُه فى الإسلام ، والرَّجل وغَناؤه فى الإسلام ، والرَّجل وصاحبُه ، واللّهِ لئن بقيتُ لهم ليأتينَّ الراعى بجبلِ صنْعَاءَ حظُّه من هذا المال وهو يرعَى مكانَه .

وجاء إلى المدينةِ مالٌ كثير ، فقام عُمر ، وقال للناس : أيُّها الناس ، قد جاءنا مالٌ كثير ، فإن شئتم كلنا كيلا ، وإن شئتم أن نَعُدَّ عَدًّا .

فأشار بعضُ المسلمين الذين جابوا بلادَ الفُرسِ والرّومِ عليه ، أن يُدوِّنَ الدواوين ، أى يكتبَ قوائمَ بأسماء النّاس ، يوضِّحُ قرينَ كلِّ اسمٍ رزقَه الشهرىّ ، فقَال : دَوِّنوا الدواوين .

وأمر بإحصاءِ القبائلِ العربية ، فأَحْصِيَت ووُضعتِ السِّجلاّتُ فى صناديقَ كبيرة ، وقد بدأ عمرُ

بالأقربِ للنبىّ ، ثم فرَض لأهلِ بدر ، ومن بعدهِم لأهلِ الحُدَيْبية وبيَعةِ الرِّضوان ، ثم لمن بعدَهم ، ولأهلِ القادسيَّة واليَرْموك .

وقال عُمرُ للناس :

ـ إنى كنت امرأً تاجرًا يُغنى اللّهُ عيالى بتجارتى ، وقد شغلتُمونى بأمركم ، فماذا تَرَوْن أنه يحلُّ لى من هذا المال ؟

فأكثرَ القوم ، وعلىٌّ بنُ أبى طالبٍ ساكت .

فقال له عمر:

ـ ما تقولُ يا علىّ ؟

ـ ما أصلحَكَ وأصلحَ عِيالَكَ بالمعروف ، ليس لك من هذا المالِ غيرُه .

ـ القولُ ما قالَ ابنُ أبى طالب .

فكان عمرُ لا يأخذُ من هذا المال إلا ما يكفيه ويكفى عِيالَه ، وحُلَّةَ الشتاء وحُلَّةَ الصيف ، فللّهِ درُّ عمر ، لقَد أتعبَ الحكّامَ من بعدِه .

القصص الديني

الحلقة الثالثة
قصص الخلفاء الراشدين

فتح مصر

تأليف
عبد الحميد جودة السحار

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

بسم الله الرحمن الرحيم

« وَمَا أُوتِيتُم مِنْ شَيء فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللّهِ خيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتوَكَّلُون » .

(قرآن كريم)

١

انتشرتِ الجيوشُ الإسلاميةُ فى الشّام .فدانتِ البلاد للمسلمين ، وانطلق عمرُو بنُ العاصِ إلى السّاحلِ يُحاربُ فُلولَ جُيوشِ الرّوم ، حتى إذا ما انتصرَ عليهم ، وطهَّر الشّامَ منهم ،كتب إلى عُبَيْدَةَ ابنِ الجرّاح ، قائدِ الجيوشِ الإسلاميةِ فى الشّام: «بسم اللّهِ الرّحمنِ الرَّحيم . من عمرِو بنِ العاصِ إلى أمينِ الأُمَّة : أمّا بعد ، فإنى أحْمَدُ اللّهَ الذى لا إلهَ إلاّ هو ، وأُصلّى على نبيِّه محمَّدٍ صلّى اللّه عليه وسلّم ، وإنَّ اللّه جلَّ وعلا قد فتح ما كان قد بقِيَ من السّاحل ، وأخذنْا قَيْسارِيَّةَ صُلْحا ، وهرب منها فِلَسْطِينُ بنُ هِرَقْل بأموالِه ، وعِياله ، ونحنُ بها ننتظرُ أمرَكَ والسَّلام .

فكتب أبو عبيدةَ إلى عمرَ بنِ الخطّابِ يُبشّره بما فتح اللّهُ على المسلمين ، ويُخبره أنَّ يوقنا حاكمَ حلَب ، قد أسلَم وانضمَّ بقوّاتِه إلى المسلمين ، فلما قرأ عمرُ كتابَ أَبى عبيدة ، راح يفكّر فى هؤلاءِ الرّومِ الذين انتزعَ منهم الشام . فوجد أَنهم يَستولونَ على مِصر ، وأَنهم يستطيعون

أَن يتجمَّعوا فى مِصر ، وأَن يهجمُوا منها ، ليستردُّوا الشام التى خرجتْ مـن أَيْدِيهـمْ ، لذلـك عـزم علـى فتـحِ مِصـر ، وطرْدِ الرُّومِ منها ، فكتب إلى أَبى عُبَيْدَةَ :

« بسـم اللّـهِ الرَّحمنِ الرَّحيـم . مـن عبـدِ اللّهِ عمرَ بـنِ الخطّاب ، إلى أَبى عُبَيْدَةَ عامِرِ بنِ الجـرّاح ، أَمـا بعـد : فإنى أَحـمَد اللّهَ الذى لا إلـهَ إلاّ هـو ، وأُصلّـى علـى نبيّـه محمدٍ صلـى اللّـه عليـه وسـلم ، وقـد فرحـتُ بمـا فتـح اللّـهُ علـى المسلمين ، وما وعدَنا به رسولُ اللّه صلى اللّـه عليـه وسـلم من كُنونِ قَيْصَر ، وسيُفتَحُ علينـا مـن كُنـوزِ كِسْرَى . وإذا قرأتَ كتابى هذا فأْمُر عَمرو بنَ العاص أن يتوجَّـه إلى مِصـرَ بعسكرِه » .

تجهَّز عمْرٌو وتـأهَّب للغَزْو ، ثـم سـار بجيشـهِ مـن الشّـامِ قاصدًا مِصر ، وقـد خـرج معـه يوقنـا حـاكمُ حلَـب وبعـضُ جنودِه ، فقـد عزم يوقنـا بعـد أن أسـلمَ أن يُقـاتلَ فـى سـبيلِ اللّه ، وانطلق الجيشُ ، حتى إذا ما بلغ رَفَحَ التفت يوقنـا إلى عمْرِو بن العاص ، وقال له :

ـ أنت تُريد أن تدهَمَ مِصْرَ على حـين غفْلـةٍ مـن أهلِهـا ، وأنا ممَّـن يُمكِنُنـى ذلـك ، أَريـد أن أتقـدَّمَ إلى أرضِ مِصـر ، فلعلّى أجدَ لكم بالحيلَة سبيلا .

فقال له عمْرو :

ـ وفّقك اللّه وأعانك .

وسـار يُوقنَـا وبعـضُ خاصتّـه إلى الفرَمـا ، ليدخُلـوا مِصـرَ خُلسَة ، ليُعاوِنوا عمرًا علـى فتحِهـا ، علـى حـين غفْلـةٍ مـن أَهلِها .

٢

كان الرّومُ الذين فى مِصرَ يعيشونَ فى قَلق ، فقد كـانت تصِـلُ إليهـمْ أنبـاءُ انتصـاراتِ المسـلمينَ فـى الشـام ، فتـنزل الخوفَ بقلوبهم ، وزاد قلقُ المُقَوْقِسِ حـاكمِ مِصـرَ مـن قِبَـلَ الرّوم ، لِما بلغَه أَنَّ قَيْسارِيَّةَ فُتِحَت ، وأَنَّ فِلسْطِينَ بنَ هِرَقْلَ قد فرَّ إلى القُسْطَنطينّية ، فقد كان فِلَسْطِينُ قـد تـزوَّجَ بابنـةِ

المُقَوقِسِ أرْمانوسَة ، وكان قد جهَّزها أبوهـا ، وأرسـلَها مـع غِلمانِها وأموالِها إلى بُلبيس .

وخشِيَ المُقَوْقِسُ أن تصِلَ أَنبـاءُ انتصـارَاتِ المسـلمينَ وكسرِهم جيوشَ هِرَقْلَ إلى المِصريّين ، فيدخلَ الرُّعـبُ فـى قلوبِهم ، فبعثَ رسلَه إلى جميعِ أطرافِ بلادِه مِمّا يلي الشام ، بأن لا يـتركوا أحـدًا مـن الـرّومِ ولا غـيرِهم يدخُـل أرضَ مِصر .

ولكنّ يُوقَنا نجح فى أن يدخُلَ مصـرَ خُلسَـة ، وعلِـم أَن المُقَوْقِسَ قد جهَّز ابنتَه ، وأَنّها ببُلبيس ، فراح يتقدَّمُ وهو فى حشَمِه وعسـكَرِه ، وكـانوا بـزيِّ الـرُّوم ، ورآه جنـودُ المُقَوْقِسِ فلم يفزَعْ ، وانتظر قدومَهم إليه وهو ثابتُ الجَنان ، حتّى إذا بلغوه ، وقالوا له :

ـ من أنت ؟ ومن أين جئت ؟

قال لهم فى ثبات :

ـ أنـا قـد جئـت رسـولاً مـن الملـكِ فلَسـطِين إلى الملـك المُقَوْقِس ، حتى يُرسلَ معى ابنتَه إلى زوجِها .

فقالوا له : إن الملكةَ فى بُلبيس ، وقـد أنفذَهـا إليـه ، ومـا منعها من المسيرِ إلا خوفُ العرب ، وهروبُ فِلَسطِينَ من قَيْسارِيَّة .

وسـار يوقنـا حتـى وصـلَ إلى بُلْبيـس ، ثـم دخـل علـى أرمانوسةَ فى قصرِها ، فقالت له : متى كنتَ مع الملك ؟

ـ منذ شهر .

ـ أكان رحلَ من المراكبِ أم قبلَ رحيله ؟

ـ بل قبلَ رحيله ، وإنه ركِبَ منهزمـا ، ولما وصلتُ إلى غزَّة ، بلغنى أنّه سار ، ثم وجَّهنى إليك أيتها الملكة ، لتركبى فى المركَبِ إليه .

فأطرقتْ أرمانوسة ، ثم رفعتْ رأسَها ، وقالت :

ـ يا يوقنا ، إنّى لا أقدِرُ أن أَصنْع شيئا إلا بأمرِ الملكِ أبى ، وإنّى مُرسلةٌ إليه .

وخرج يوقنا إلى خيامِه ، وأرسلتْ أرمانوسة إلى المُقَوْقِسِ تسأله رأيَه فيما جاءَ فيـه يوقنـا ، فلمـا جـاءَ اللّيـلُ ، ودخـل الجواسيسُ على أرمانوسة ، وقالوا لها :

ـ فتحَ العربُ قَيْساريَّةَ ومدائنَ الشام جميعَها .

وتوجَّهَ عمرُو بن العاصِ إلى مِصر ، وقد خرج معه يُوقَنا بعد أَنْ أَعلنَ إسلامَه .

فظهر الغيظُ فى وجه أَرمانوسة ؛ ساءها أن يخدعَها يُوقَنا ، فطلبتْ حاجبَها ، وقالت له :

ـ مُرِ العسكر بلُبسِ السِّلاح ، وأَن يكونوا متيقِّظين .

وأَحسَّ يوقنا حركةً فى العسكر ، فتيقَّنَ أَن أَمرَه انكشف ، فقال لأصحابه :

ـ اعلموا أَنَّ الملكةَ شعرتْ بنا ، والقومَ قد عوَّلوا على قتلِنا ، فإن وقعْنا فى أَيديهم قتلونا لا مَحالة ، وتُضربُ بنا الأمثالُ لمن يأتى بعدَنا ، فموتوا كراما .

وتأهَّب يوقنا للقِتال ، ثم دخل خيمتَه يُصلِّى ، فإذا بشخصٍ قد دخل عليه ، فارتاع منه ، ثم تأمَّله ، فإذا هو رسولٌ أَرسلَه عمرُو بنُ العاص ، ففرِحَ به ، وقال له :

ـ مرحبًا بك .

ـ إنَّ عَمرَو بنَ العاصِ قد وصل ، وها هو منك قريب ، وقد أَرسلنى إليك لأُعرِّفَه خبرك .

ـ امْضِ ودعْه يُعجِّل بالمجىء ، يعُيننا على هؤلاءِ القوم .

فرجع الرسولُ مسرعًا مثل الرِّيحِ الهَبوب ، إلى عمرِو بن العاص ، وأعلمه بقصَّة يوقنا ، فأَسرع عمرٌو وبعض فُرسانِ المسلمين لنجدة يوقنا ، فما كان قبل طلوع الفجر ، إلاَّ وعمرٌو ومن معه عند يوقنا ، فلما أَحسَّ بهم يوقنا كبَّر ، ورفع الجميع أَصواتَهم بالتهليلِ والتكبير ، ووضعوا السيفَ فى حاميةُ بُلْبيس ، فما طلعتِ الشمسُ إلاّ وقد استولى عمرٌو على بلبيس ، وأخذ أَرمانوسة وجميعَ ما معها من الرِّجال والجوارى والأموال ، ثم جمع عمرٌو أصحابَ رسول اللّه ، وقال :

ـ إنَّ اللّهَ سبحانَه وتعالى قد قال : « هل جزاءُ الإحسانِ إلاَّ الإحسان » . وهذا الملكُ قد علِمتُم أَنه كاتبَ رسولَ اللّه ﷺ ، وبعث هدية ، ونحن أحقُّ بمن كافأ عن نبيِّه ﷺ هديَّتَه ، وقد رأيتُ أن نبعثَ إلى المُقَوْقِس ابنتَه ، وما أخذنا

منها ، ونحنُ نتّبعُ سُنّةَ رسولِ اللّه ، صلى اللّه عليه وسلم ، وقد سمِعته يقول : ارحَموا عزيزَ قوْمٍ ذَلّ .

ـ هذا هو الرّأى .

وأرسل عمرٌو أرمانوسةَ إلى المُقوْقِس ، معزّزَةً مكرّمة .

٣

سار عمرٌو من بُلبيس ، ونزل على قليوب . وبعثَ إلى أهلِ البلادِ والقُرى ، وقال لهم :

ـ لايرحلْ أحدٌ من بلدِه ، ونحن نقنعُ بما توصلونَه إلينا من الطّعامِ والعُلوفَة .

كان المِصريُّونَ يُقاسونَ من ظُلمِ الرُّوم ، فقد كانوا يدفعونَ لهم أموالاً كثيرة ، وكان القمحُ يُحمَل من مِصرَ إلى القُسطنطينيَّة ، وقد سمِعَ المِصريّونَ بعدلِ المُسلمين ، لذلك رحَّبوا بهم ، وقبِلوا أَن يُعينوهم فى حربهم ، واستمرَّ عمرٌو فى تقدُّمِه ، حتى بلغَ حصنَ بابليون ، وكان الرّومُ قد تحصَّنوا به ، فحاصره ، وإذا برسولٍ يأتى إلى عسكرِ المُسلمينَ ، ويقول : يا معشرَ العرب ، إنَّ ولىَّ عهدِ الملك

يُريد منكم أن تبعَثوا له رجلاً منكم ، ليخاطِبَه بما فى نفسِه ، فلعلَّ اللّهَ أن يصلح ذاتَ بينِكم .

فاجتمع عمرٌو بأصحابه ، وقال لهم : لست أرى من يتكلَّم مثلى ، وما يسير إلى هؤلاء إلاّ أنا ، فإنّى أُريد أن أردَ القوم ، وأَنْظُرَ حالَهم ، وماهم فيه من القوَّة ، وألاّ يخفى على شىءٌ من أمرِهم .

فقال له أصحابه : قوّى اللّهُ عزمَك ، وما عندَنا إلاّ النصيحةُ للدّين ، والنّظرُ فى مصالِح المسلمين ، فافعلْ ما أردت .

وتقلّد عمرٌو سَيفه ، وركِب جوادَه ، وسار ومعه غُلامه وَرْدان ، وذهب إلى قصرِ الشَّمع ، ودخل عمرٌو وهو راكب ، فاراد الحُجَّابُ أَن يُنزِلوه عن جوادِه ، فأَبى ، وأَن يأخذوا سيفَه ، فأَبى ، وقال :

ـ ما كنتُ بالّذى أَنزلُ عن حِصانى ، ولا أُسلمُ سيفى ، فإن أَذِن صاحبُكم أَنْ أَدخلَ على حالتى ، وإلا رَجَعْتُ من حيث أَتيت .

ودخل عمرٌو على ولىِّ العهْد ، فقال ولىُّ العهد :

ـ يا أخا العرب ، ما الذى تُريدون منّا ، وما قصَدَنا أحدٌ إلا رَجَعَ بالخَيْبة ، وإنا قد كاتبْنا النُّوبة ، وكأنّكم بهم قد وَصلوا إلينا . فقال عمْرو :

ـ إنّا لانخافُ من كثرةِ الجُيوشِ والأُمم ، وإنَّ اللّهَ قد وعَدنا النّصر ، وأَن يُورِثَنا الأرض ، ونحنُ ندعوكُم إلى خَصلةٍ من ثلاث : إمَّا الإسلام ، وإمَّا الجزية ، وإمّا القِتال .

ـ إنّا لانبُرمُ أَمرًا إلاّ بمشورةِ الملكِ المُقَوْقِسِ .

وفطَن ولىُّ العهد إلى أَنَّ من يُخاطِبُه هو أَميرُ القوم ، فأَراد أَن يقبِضَ عليه ، فقال : « يا أخا العرب ، ما نظنُّ أَنَّ فى أصحابِك من هو أَقوى منك جَنانا ، ولا أَفصحُ لسانا ».

وحزَر عمرٌو ما يدور فى رأْس ولىِّ العهد ، فقال :

ـ أَنا أَلكنُ لسانا مِمَّن فى أصحابى ، ومنهم مَنْ لو تكلَّم لعلِمتَ أَنِّى لا أُقاس به .

ـ هذا منَ المُحال ، أَن يكون فيهم مثلُك .

ـ إن أَحبَّ الملكُ أَن آتيَه بعشرةٍ منهم يسمَعُ خِطابهم .

وطمِعَ الملكُ فى أن يقبِضَ عليهم ، فالأحدَ عشرَ أَحسنُ من الواحد . وخرج عمرٌو من عندِه بعد أَن خدَعَه ، ونجا من كيده .

٤

وأَرسلُ عُمرُ بنُ الخطّاب ، إلى عمرو بنِ العاصِ مَددا ، بقيادةِ الزُّبَيْرِ بنِ العَوّام ، فجاء المَدَدُ وعمرٌو يُحاصرُ الرُّومَ فى حصنهم ، ودبَّ الضّعفُ فى صفوفِ الرُّومِ ، فقالوا :

ـ ماتُقاتلونَ من قومٍ قتلوا كِسْرَى وقيصر ، وغلبوهُم على بلادِهم ؟

ولكنَّ بعضَ القُوّاد أَبَوُا الصُّلح ، ورَأَوُا الخروجَ لقِتال المسلمين ، فخرجوا إليهم ، ودارت معركةٌ رهيبةٌ أَمام الحِصن ، فجعل كثيرٌ من المسلمينَ يفرُّ من الزَّحف ، فراح عمرٌو يحثُّهم على الثبات ، فقال له رجلٌ من أَهل اليمن :

ـ إننا لم نُخلَقْ من حجارةٍ ولا حديد .

ـ اسكتْ فإنّما أنتَ كلب .

ـ فأنتَ إذنْ أميرُ الكِلاب .

فأعرضَ عنه عمْرو ، ونادى يطلب أصحابَ رسولِ اللّه ، فلما اجتمعَ إليه مَنْ هُناك من الصَّحابة ، قال لهم عمْرو : تقدَّموا ، فبكم ينصرُ اللّهُ المسلمين .

فتقدَّم أصحابُ رسولِ اللّه ، وثبَتوا للقِتال ، حتّى دارتِ الدَّائرةُ على الرُّوم ، فانهزموا ولاذوا بحصنِهم ، وارتقى الزُّبَيْرُ عليهمُ السُّور ، فلما أحسُّوا الهزيمةَ خرجوا إلى عمرِو من البابِ الآخر ، فصالحوه ، فأعطاهُم الأمانَ على أنفُسِهم ومِلَّتهم وأموالِهم وكنائسِهم ، ثم عسكرَ بجيشِه عند جبلِ المقطَّم ، وخطَّطَ مدينةَ الفُسطاط (مِصرَ القديمة) .

٥

وسارتْ جيوشُ المسلمينَ إلى الإسكندريَّة ، فأرسلَ صاحبُ الإسكندريَّةِ إلى عمرو بنِ العاص :

ـ إنّي قد كنتُ أخرِجُ الْجزيةَ إلى من هو أبغضُ إليَّ منكم معشرَ العرب ؛ لفارسَ والرُّوم ، فإن أحببتَ أن أعطِيَكَ الجزيةَ على أن ترُدَّ عليَّ ما أصبتُم من سبايا أرضي فعلْت .

فبعث إليه عمرُو بنُ العاص :

ـ إن ورائى أميرًا لا أستطيعُ أن أصنعَ أمرًا دونَه ، فإنْ شئتَ أن أُمسِكَ عنك ، وتُمْسِكَ عنّى ، حتى أكتبَ إليه بالَّذى عرضتَ عليّ ، فإن هو قبل ذلكَ منك قبلت ، وإن أمرنى بغير ذلك مضيتُ لأمره .

فقبِل صاحبُ الإسكندريَّةِ ذلك ، فكتب عمرُو بنُ العاص إلَى عمرَ بنِ الخطّاب ، يذكر له الذى عَرَض صاحبُ الإسكندريَّة ، وانتظر حتى جاءَه كتاب أميرِ المؤمنين ، فقرأ على المسلمين :

« أمَّا بعد ، فإنه جاءَني كتابُك تذكر أن صاحب الإسكندريَّة عرض أن يُعطيَكَ الجزيَة ، على أن تردَّ عليه ما أصيب من سبايا أرضِه ، ولعمْرى لجزيَةٌ قائمةٌ تكون لنا ولمن بعدنا من المسلمين ، أَحبُّ إليَّ من فَيءٍ يُقسَم ، ثم كأنه لم يكنْ ، فاعرض على صاحب الإسكندريَّة أن يُعطيَكَ الجزية ، على أن تُخيِّرُوا من فى أيديكم من سَبْيِهم بين الإسلامِ وبين دين قومه ، فمن اختارَ منهم الإسلامَ فهو من المُسلمينَ ، له ما لهم ، وعليه ما عليهم ، ومن اختارَ دينَ

قومِهِ وُضِعَ عليه من الجِزيَةِ ما يُوضَعُ على أَهلِ دينِهِ ، فأمّا من تفرَّق من سبْيهم بأرضِ العرب ، فبلغ مكّة والمدينة واليمن ، فإنا لا نقدِرُ على ردِّهم ولانُحبُّ أن نصالحَه على أمر لا نفى له به .

وتمَّ الصُّلحُ بين صاحبِ الإسكندريةِ وعمرو ابنِ العاص ، فخرجتْ مصرْ من ولايةِ الرّوم ، وراحتْ تُرفرِفُ عليها الرايةُ الإسلاميَّة .

القصص الديني

الحلقة الثالثة

قصص الخلفاء الراشدين



عمر والرعية

تأليف

عبد الحميد جودة السحار

الناشر

مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« إنَّ اللّـهَ يـأْمُرُ بـالْعَدْلِ وَالإحْسَـان وَإيتَـاءِ ذِى القُرْبَـى ، وَيَنْهَـى عَـنِ الفَحْشَـاءِ وَالْمُنْكَـرِ وَالْبغْـيِ ، يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تذَكَّرُون » .

(قرآن كريم)

١

كان عُمر بنُ الخطَّابِ يخرُج فى اللَّيـل ، يتفقَّـدُ أحوالَ المسلمين . وبينما هـو سـائرٌ وحـدَه ، وجـد ناسـا قـد نزلـوا فـى السُّوق ، فأسرعَ إلى دارِ عبـد الرَّحمن بنِ عوْف ، وطرق الباب ، ففتحتْ له زوجـةُ عبد الرَّحمن ، وقالتْ له :

ـ لا تدخلْ حتى أدخلَ البيتَ وأجلِسَ مجلسِى .

فظلَّ عمرُ واقفا ينتظرُ الإذنَ لـه بـالدُّخول ، فلمَّـا قـالتْ لـه ادخُـل ، دخـل فوجـدَ عبـدَ الرَّحمـنِ قائمـا يُصلِّى ، فانتظر حتى انتهَى عبدُ الرحمن من صلاتِـه ، وأقبلَ عليه يقولُ له :

ـ ما جاءَ بك فى هذه الساعةِ يا أميرَ المؤمنين ؟

ـ رُفقةٌ نزلتْ فى ناحية السُّوق ، خشِيتُ عليهـم سُرَّاقَ المدينة ، فانطلقْ فلْنحرُسْهُمْ .

وسارا ، حتى إذا وصلا إلى السُّوق ، قعدا على مكانٍ مرتفعٍ من الأرض يتحدَّثان ، وانقضَى اللَّيل وهما يَحرُسان النَّاس ، حتى إذا أشرقتِ الشمس ، اطمأنَّ عمرُ وترك المكان .

كان عمر يعتقدُ أنَّه مسئولٌ عن النَّاس جميعًا ما دام أميرًا عليهم ، فكان يقسو على نفسه ، ليضمَن لرعيَّتِهِ الأمنَ والسَّلام .

٢

وخرج عُمر ذاتَ ليلةٍ ومعه غلامُه ، وسارا حتى رأيا نارا ، فقال عمر :

ـ إني أرى هؤلاءِ رَكْبًا قَصَّرَ بهم اللَّيلُ والبرْد ، انطلِقْ بنا .

فذهبا يُهَرْوِلانِ حتَّى اقتربا منهم ، فإذا امرأةٌ معها صبيانٌ لها ، وقِدْرٌ منصوبةٌ على النَّار ، وصِبيانُها يتَلوَّون من الجوع ، فقال عُمر :

ـ السَّلام عليكم .

قالتِ المَرأة :

ـ وعليكَ السَّلام :

ـ أأدنو ؟

ـ اُدنُ بخيرٍ أودَع (أو اذهب) .

ـ ما بالُكم ؟

ـ قصَّر بنا اللَّيلُ والبَرد .

ـ فما بالُ هؤلاءِ الصِّبية ؟

ـ يتلوَّونَ من الجَوع .

ـ وأىُّ شيء فى هذه القِدْر ؟

ـ ماءٌ أُسكِتُهم به حتى يناموا . واللّهُ بيننا وبينَ عمر .

فقال عمر مُعتَذِرًا :

ـ رحمَكُمُ اللّه ما يُدْرِى عُمَر بكم !

فقالتِ المرأةُ فى إنكار :

ـ يتولَّى أمرَنا ويَغفُل عنَّا ؟!

فنظر عمرُ إلى غلامِه ، وقال له :

ـ انطلِقْ بنا .

فذهبا يُهرولان ، حتى أتيا دار الدَّقيق ، فأخرج عِدْلا (جوالقا) ، وقال لغلامه :

ـ احمِلْه علىّ .

فقال الغلام :

ـ أنا أحمِلُه عنك .

فقال عمر :

ـ احمِلْه علىّ .

ـ أنا أحمِله عنك .

فقال له عمرُ فى غضب :

ـ أأنت تحمِلُ وِزْرِى عنّى يومَ القيامة ، لا أمَّ لك ؟!

فَحمَلَه عليه ، وانطلقا يُهروِلان ، حتى انتهيا إلى المرأة ، فألقَى العِدلَ عندَها ، وأخرج من الدَّقيق شيئا، وجعل ينفخُ تحتَ القِدْر ، وكان ذا لِحيةٍ عظيمة ، فراح الدُّخانُ يخرجُ من خِلَلِ لِحيتهِ ، واستمرَّ ينفُخُ فى النَّار ، حتَّى أنضجَ الطعام ، وأنزَلَ القِدْر ، ووضعَ الطَّعامَ فى صَحْفة (شبه طَبَق) ، وقال للمرأة :

ـ أطعِميهم .

وراحتِ المرأةُ تُطعِم الصِّبيان ، فلما شَبعوا قالت له ، وهى لا تعرِفُ أنَّه عُمر :

ـ جزاك اللّهُ خيرا ، أنتَ أولَى بهذا الأمرِ من أميرِ المؤمنين .

فقال لها عمرُ أَمير المؤمنين :

ـ قُولِى خيرا . إنك إذا جئتِ أَميرَ المؤمنين ، وَجَدْتِنِى هناك إن شاءَ اللّه .

ووقف بعيدا ينظُر إلى الصِّبيان ، حتى رأَى الصِّبْيَةَ يصْطَرِعونَ ويضحكون ، ثم ناموا وهدءُوا ، فقال عمُر :

ـ الحمدُ للّه .

ثم التفتَ إلى غلامهِ ، وقال :

ـ إنَّ الجوعَ أَسهرَهم وأَبكاهم ، فأَحْبَبْتُ أَنْ لا أَنصرفَ حتى أَرَى ما رأَيتُ منهم .

٣

أجرى عَمرو بنُ العاصِ الخيلَ بمصر ، فأقبلتْ فَرَس ، فلما رآها الناسُ قام محمدُ بنُ عمرو بنِ العاص ، فقال :

ـ فرسى وربِّ الكعبة .

فلما دنتِ الفرس ، عرفَها صاحبُها المِصرىّ ، فقال : فَرَسِى وربِّ الكعبة .

فقام محمدُ بنُ عمرِو بنِ العاصِ إلى المِصرىّ ، فضربه بالسَّوْطِ ، وقال :

ـ خُذْهُا وأَنا ابْنُ الأكْرمَيْن .

بلغ ذلك أَباه عمرَو بنَ العاص ، فخشِيَ أَن يشكوَ المِصرىُّ ما نالَهُ لأميرِ المؤمنين عمرَ بنِ الخطّاب ، فحبسَ الرّجل ، ولكنه هَرَب من سجنِه ، وأَتى عُمر ، فأرسل عُمر إلى عمرو أَن يأتيه من فَوْرِه ،

ومعه ابنُه محمَّد ، فلما مَثلا أَمامَ أَميرِ المؤمنينِ ، أَعطى عُمَرُ دِرَّتَه للمِصرىّ ، وقال له :

ـ اضرِبْ بها ابنَ الأكرَمَيْن .

فأخذَها الرَّجُل ، وضرب محمَّدا ، ثمّ طلب منه أن يضريب بها عمرو بنَ العاصِ نفسَه ، قائلا :

ـ فواللّهِ ما ضَرَبَك إلا بفضلِ سُلطانه .

فقال المِصرىّ .

ـ يا أميرَ المؤْمنين ، قد ضربْتُ من ضَرَبنى .

فقال عُمر :

ـ أما واللّه لو ضربتَه ما حُلنا بينَك وبينَه ، حتى تكونَ أنتَ الذى تَدَعُه .

ثم وَجَّه الكلامَ إلى عمرو ، فقال :

ـ أيا عَمْرو ، متى تَعَبَّدْتُمُ النَّاسَ وقد ولَدَتهُمْ أَمَّهاتُهُمْ أحرارا ؟ !

٤

رأى عُمر شيخًا ضريرا يسألُ على باب ، فلمَّا علِم أنَّه يهودىٌّ ، قال له :

ـ مَا ألجأكَ إلى ما أرى ؟

قال اليهودِىّ :

ـ أسأل الجزيةَ والحاجةَ والسِّن .

فأخذ عُمرُ بيده ، وذهبَ به إلى دارِه ، فأعطاهُ ما يكفيهِ ساعتَها ، وأرسلَ إلى خازن بيتِ المال يقولُ له :

ـ اُنظرْ هذا وضُرَباءَه (أمثاله) فواللّه ما أنصفْناه إن أكلنا شَبيبته (أى استفدْنا منه وهو شابّ) ونخزُهُ عند الهَرَم . إنّما الصَّدقاتُ لِلْفقُراءِ والمساكين ، وهذا من مساكينِ أهلِ الكِتاب .

ووضَعَ عُمر عنه الْجزيةَ وعن ضُرَبائِه ، فقد كانتِ الْجزيةُ تُجبَى من غيرِ المُسلمين .

لم يشأ عمرُ أن تأكلَ الدولةُ الرجلَ وهو شابّ ، ثم لا تُنصِفه إذا كبر ، مع علمِه أنّه يهوديّ ، ولم يكتفِ عمرُ بحمايةِ المسنّين ، بل فَرَضَ لكلِّ مولودٍ مائةَ دِرْهمٍ من بيتِ مالِ المسلمين . سَمِع عمرُ بكاءَ صبيّ ، فتوجَّه نحوه ، وقال لأُمِّه :

ـ اتَّقِي اللّه ، وأحسِنِى إلى صبيِّك .

ثم عادَ إلى مكانِه ، فسمعَ بكاءَه ، فعاد إلى أمِّ الصّبيّ ، فقال لها مثلَ ما قال ، ثم عاد إلى مكانِه فلمَّا كان من آخرِ اللَّيل ، سَمِعَ بُكاءَه . فأتى أمَّه ، فقال لها :

ـ وَيْحَك ، إنّى أراكِ أمَّ سَوْء . مالى أرى ابنَك لا يقَرُّ منذُ الليلة ؟

ـ إنى أُريغُه (أَصْرِفه) عن الطَّعام ، فيأبَى .

ـ ولِمَ ؟

فقالتِ المرأة :

ـ لأنَّ عمر لا يفرِضُ إلاّ للفُطم (الْمَفُطومِين) .

ـ وكم له ؟

ـ كذا وكذا شهرا .

ـ وَيْحَكِ لا تُعْجِليه .

ثم صلَّى عمرُ الفجر ، فلمَّا سلَّمَ قال : « يابؤسَى لعُمر ، كم قتلَ من أولادِ المسلمين » ثم أمرَ مناديا فنادَى : ألاّ تُعجِلوا صِبيانَكم عن الفطام ، فإنا نفرِضُ لكلِّ مولودٍ فى الإسلام .

ومن ذلك اليومِ أصبحَ عمرُ يفرِضُ مائَةَ دِرهمِ لكلِّ مولودٍ فى الإسلام .

٥

ترك جُندَبُ بنُ عمْرو بنِ حُمَمَةَ الدوْسيّ ابنتَه الصغيرةَ عند عمر ، وخرج إلى الشَّام ، ليُحاربَ مع المسلمين ، وقال لعمر :

ـ يا أميرَ المؤمنين ، إن وَجَدْتَ لها كفئا ، فزوِّجه ولو بشراك نعله (أى ولو دفع مهرَها سيرَ نعلِه) ، وإلاّ فأَمسكها ، حتى تُلحقَها بدارِ قومِها .

واستُشهدَ أبوها فى حروبِ الشَّام ، فبقيتْ عندَ عمر ، تدعوه أباها ، ويدعوها ابنتَه ، وكان عمرُ يفكِّر فى إسعادِها ، فبينما كان على المِنبر يوما ، إذ خَطَرَ على قلبه ذكرُها ، فقال :

ـ من له فى الجميلةِ الحسيبةِ بنت جُندبِ بنِ عَمرو ، وَلْيَعْلَم امرؤٌ من هو !

فقام عثمان فقال :

ـ أنا يا أميرَ المؤمنين .

ـ أنت لعَمْرُ اللّه ! كم سُقْتَ إليها (كم تدفع من مهر) ؟

ـ كذا وكذا .

ونزل عن المِنبرِ ، فجاء عثمانُ رضِىَ اللّه عنه بمهرِها ، فأخذه عُمر فى يدِه ، فدخل به عليها ، فقال :

ـ يا بُنَيَّة ، مُدِّى حجْرَك .

فتحتْ حِجْرَها ، فألقى فيه المال ، ثم قال :

ـ يا بُنَيَّة ، قولى اللَّهمَّ باركْ لى فيه .

فقالت :

ـ اللَّهمَّ باركْ لى فيه ، وما هذا يا أبتاه ؟

ـ مَهْرُك .

فَخَجلت ورَمَتْ به بعيدا ، وقالت :

ـ واسوْءَتاه !

ـ احتبسِى منه لنفسِك ، ووسعِّى منه لأهلِك .

والتفتَ إلى حَفصةَ ابنتهِ وقال :

ـ يا بنتاه ، أصْلِحى مِنْ شأنِهَا .

ولما تهيَّأت الفتاة ، أرسل بها معَ نسوةٍ إلى عثمان ، فلما خرجن ، قال عمر :

ـ إنها أمانةٌ فى عنقى ، وأخشَى أن تضيعَ بينى وبين عثمان ، فلَحِقهن ، وسار بها ، حتى ضرب على عثمان بابه ، ثم قال :

ـ خذْ أهلَك ، باركَ اللّهُ فيهم .

وعاد مطمئنًّا ، بعد أن أدَّى الأمانة .

كان عُمر الإمامَ العادل الذى يَسهرُ على راحةِ رعيَّتِه ، كان أبا العيالِ إذا غابَ الرِّجالُ فى الحروب ، والبَلْسَمَ الشّافىَ للفقراء والمُعْوِزين والمُسِنِّين وأصحابِ الحاجات .

القصص الديني

الحلقة الثالثة
قصص الخلفاء الراشدين



وفاة عمر

تأليف
عبد الحميد جودة السحار

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

بسم الله الرحمن الرحيم

« ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيم » .

(قرآن كريم)

١

انتصرَ المسلمون على الفُرسِ فى القادِسيَّة وفى جَلُولاَء الوقيعة ، فضاق صدرُ يَزْدَجِرْدَ ملكِ الفُرسِ بالهزيمة ، وأراد أن يستردَّ ملكه من العرب ، فجمع جيشًا عظيما ، وجعل قائده الهُرْمُزان ، ودار بين جيشِ المسلمينَ وجيشِ الفرسِ بقيادة الهُرْمُزانِ قتالٌ رهيب ، فهُزِمَ الفُرس ، ووقع الهُرْمُزَانُ فى الأَسر ، وأُرْسِلَ إلى عمرَ أمير المؤمنينَ فى المدينة .

وصل الوفدُ بالهُرْمُزانِ إلى المدينة ، فلمَّا بلغوها هيَّئوا الهُرْمزانَ فى هيئته ، فأَلبسوه كُسوةً من الدّيباج (الحرير) الذى فيه الذهب ، ووضعوا على رأسِهِ تاجًا مكلَّلاً بالياقوت ، وعليه حِليتُه كيما يراه

عمرُ والمسلمون . وذهب الوفدُ إلى بيتِ عمر ، فقيل لهم إنَّه خرجَ ، فساروا فى طُرقات المدينةِ والنّاسُ حولَهم ، ومرّوا بِغلمانِ يلعبون ، فسألهم الغِلمان :

ـ من تريدون ؟ أميرَ المؤمنين ؟

ـ أجل .

ـ إنه نائمٌ فى ميمنةِ المسجد .

فوجدوا رجلا نائما ، متوسِّدًا بُرْنسَه ، ولا أحدَ فى المسجدِ غيرُه ، فراح الهُرْمُزانُ يدير عينيه فى المسجد ، فلا يجدُ إلا رجلاً نائما ، وفى يده دِرّةٌ معلقة ، فسأل الوفد :

ـ أين عمر ؟

فأشاروا إلى الرَّجل النائم ، وقالوا :

ـ هو ذا .

فظهر العجبُ فى وجه الهُرمزان ، وقال :

ـ أين حراسُه وحجّابُه ؟

ـ ليس له حارسٌ ولا حاجبٌ ولا كاتبٌ ولا ديوان .

ـ فينبغى أن يكونَ نبيّا .

ـ بل يعملُ عملَ الأنبياء .

وحدثت جَلَبة ، وارتفعتْ أصواتُ النّاس ، فاستيقظَ عمرُ وفتح عينيه ، فوقع بصرُه على رجل فى ملابسَ فاخرة ، وعلى رأسِه تاجٌ يتلألأ ، فاستوَى جالسًا وسأل من حوله :

ـ الهُرْمُزان ؟

قالوا :

ـ نعم .

فأخذ عمرُ يتأمَّلهُ ويتأمَّلُ ما عليه ، ثم قال :

ـ أعوذُ باللّه من النّاس ، وأستعين اللّه ، الحمدُ للّه الذى أذلَّ بالإسلام هذا وأشياعَه .

ثم التفتَ إلى النّاسِ وقال :

ـ يا معشر المسلمين ، تمسَّكوا بهذا الدين ، واهتَدوا بهدىِ نبيِّكم ، ولا تُبْطِرَنَّكم الدُّنيا ، فإنها غرّارة .

فقال له الوفد :

ـ هذا مِلكُ الأهواز فكلِّمه .

فقال عمرُ وهو يُشيحُ عنه بوجههِ :

ـ لا ، حتى لا يبقى عليه من حِليتهِ شىء .

فجرَّدوه من ثيابه إلا ما يستُره ، ثم ألبسوه ثوبًا خشِنا ، وقال له عمر :

ـ ما عذرُك وما حُجتُك فى انتقاضِكَ مرَّةً بعد مرَّة ؟

ـ أخافُ أن تقتلَنى قبلَ أن أُخبرَك .

ـ لا تخفْ ذلك .

ـ أريدُ أَن أشرب .

فأُتِىَ بماء فى إِناء ، فتناولَه ، وجعلتْ يدُه ترتجف ، ثم التفتَ إِلى عمرَ ، وقال :

ـ أخافُ أن أُقتلَ وأنا أشربُ الماء .

ـ لا بأسَ عليك حتى تشرَبه .

فألقَى الهُرْمُزانُ بالماءِ ولم يشربْه ، فقال عمر :

ـ أعيدوا عليه (أى أعطُوهُ يشربُ مرَّةً ثانية) ولا تجمعوا عليه القتلَ والعطش .

فقال الهُرْمُزان :

ـ لا حاجةَ لى فى الماء ، إِنَّما أردتُ أن أستأمنَ به .

فقال عمر :

ـ إنى قاتلُك .

ـ قد أمَّنتنى .

ـ كذبتَ .

فقال النّاس .

ـ صدق يا أميرَ المؤمنين قد أمَّنته ، قلتَ له : لا بأسَ عليك حتى تشربه .

فأطرقَ عمرُ قليلا ، ثم رفعَ رأسَه ، والتفتَ إلى الهُرْمُزان ، وقال : واللّه لا أَنخدِعُ إلا لُمسلم .

فأسلَمَ الهُرْمُزانُ ، وأنزلَه عمرُ المدينة .

٢

لم يكنِ الهُرْمُزانُ صادقا فى إسلامِه ، فقد أسلمَ لِيُنقِذَ نفسَه ، وكان يحقِد على عمر ، لأنَّه هزمَهم ، لذلك كان يدبِّرُ قتلَه ، وفى ذات ليلةٍ دخل الهُرْمُزان وأبو لؤلؤةَ غلامُ المغيرةِ بن شُعبةَ ورجلٌ ثالثٌ إلى مكان هادئ وراحوا يَتشاوَرون ، ثم وضعوا بينهم خَنجرًا له رأْسان ومَقبضه فى وسطِه ، واتَّفقوا على أن يقتلَ أبو لؤلؤةَ عمر .

وخرج عمرُ يطوفُ فى السُّوقِ فلقِيَه أبو لؤلؤة ، وكان غلاما للمُغيرة ، وقد فرض عليه المغيرةُ دِرْهَمين كلَّ يوم ، لأنَّه كان صانعًا ماهرًا . قال أبو لؤلؤة :

ـ يا أَميرَ المؤمنين ، إن علىَّ خراجا كثيرًا .

ـ وكم خراجُك ؟

ـ دِرهما فى كل يوم .

ـ وأيش صناعتُك ؟

ـ نجارٌ نقّاشٌ حدَّاد .

ـ فما أرى خراجَك بكثير على ماتصنعُ من الأعمال ؛ بلغنى أنك تقولُ لو أردتُ أن أعملَ رحًى تطحن بالريح فعلت .

ـ نعم .

ـ فاعملْ لى رحًى .

ـ لئن سلمتُ لأعملنَّ لك رحًى يتحدَّثُ بها مَن بالَمشرقِ والَمغرب .

وانصرف أبو لؤلؤة ، وفكّر عمرُ فيما قال ، فَغَمْغَم :

ـ لقد توعَّدنى العبد .

وراح عمرُ يصرِّفُ أمورَ المسلمين ، ومرَّت أيامٌ نَسِيَ عمرُ بعدَها حديثَ أَبى لؤلؤة ، وارتفع صوتُ المؤذِّنِ يدعو النّاس لصلاةِ الصبح ، فخرج عمرُ من دارِه ، وذهب إلى المسجد ، وتقدَّم الصُّفوف ، فخرج أبو لؤلؤةَ من بينِ الصُّفوف ، وطعن عمرَ ثلاثَ طعنَات ، فصاح عمر :

ـ دونَكم الكلب ، فإنَّه قد قتلنى .

وماج الناس ، وخرج رجالٌ وصاح بعضُهم ببعض : « دونكم الكلب » . فشدَّ على أبى لؤلؤةَ رجلٌ من خلفِه ، فاحتضنَه وقبضَ عليه ، وقال قائل :

ـ الصلاةَ عبادَ اللّه ، طلعتِ الشَّمس .

فقال عمر :

ـ أفى الناس عبدُ الرَّحمنِ بنُ عوف ؟

ـ نعم يا أميرَ المؤمنين ، هو ذا .

ـ تقدَّم .

فصلّى عبدُ الرحمن بأقصرِ سورتينِ فى القرآن ، ثم أسرعَ الناسُ إلى عمر ، فقال :

ـ يا بنَ عباس ، اخرج فنادِ فى الناس : أعن ملاء[1] ورضًى منهم كان هذا ؟ (أى هل اتّفقوا على قتلِه ورضُوا عن ذلك ؟)

فخرج ابنُ عباس فنادى ، فقالوا :

ـ مَعاذَ اللّه ، ما علمنا .

واحتُمل عمر ، فأُدخل إلى داره ، ودخل علىُّ بنُ أبى طالبٍ عليه ، فقال له عمر :

ـ يا علىّ ، أعن ملاء منكم ورضًى كان هذا ؟

فقال على :

ـ ما كان عن ملاءٍ منا ولا رضًى ، ولوَدِدْنا أنَّ اللّهَ زاد من أعمارِنا فى عمرِك .

وكان رأسُ عمرَ فى حجْرِ ابنِه عبدِ اللّه ، فقال له :

---

(١) ملاء : مساعدة على الأمر .

ـ ضعْ خدّى بالأرض .

فلم يفعلْ ، فلحظَه وقال :

ـ ضعْ خدّى بالأرض ، لا أمَّ لك .

فوضعَ خدَّه بالأرض ، فقال :

ـ الويلُ لعمرَ ولأمِّ عُمَر ، إنْ لم يغفِر اللّهُ لعمر .

ودخلَ المهاجرونَ على عمرَ فقالوا :

ـ استخلِفْ علينا .

ـ واللّه لا أحمُلكم حيًّا وميّتا ، إن استخلفتُ فقد استخلف من هو خيرٌ منى ، وإن أدَعْ فقد تركَ من هو خيرٌ منّى . (يقصِدُ النبىَّ وأبا بكر) .

ونزفَ دمُه ، فالتفتَ إليه من عندَه وقالوا له :

ـ يا أميرَ المؤمنين لو دعوتَ الطَّبيب .

ـ افعلوا .

فأرسلوا فى طلبِ الطبيب ، فجاء فسقاهُ نبيذا ، فخرج النبيذُ مشكّلا ، فقال :

ـ اسقوه لبنا .

فسقَوْه لبنا ، فخرج اللّبن أبيض ، وبان الضعفُ فى عمر ، فقال لابنه :

ـ اذهبْ إلى عائشة ، وأقرئها منّى السّلام ، واستأذنها أَن أُقبَر فى بيتها مع رسولِ اللّه ، ومع أَبى بكر .

فذهب إليها عبدُ اللّهِ بنُ عمر ، فأعلمها ، فقالت :

ـ نعم وكَرامة ، يابنىَّ أبلغْ عمَر سلامى ، وقلْ له : لا تَدَعْ أمَّةَ محمَّدٍ بلا راع ، استخلِفْ عليهم ولا تدعْهم بعدَك هَملا ، فإنّى أَخشى عليهم الفتنة .

فأتى عبدُ اللّه فأعلَمه ، فقال :

ـ ومن تأمُرنى أَن أَستخلِف ، لو أدركت أَبا عبيدةَ بنَ الجرَّاحِ باقيًا استخلفتُه وولَّيتُه ، فإذا قدِمتُ على ربّى فسألنى وقال لى : من وليّتَ على أُمَّةِ

محمَّد ؟ قلتُ إىْ ربّ ، سمِعتُ عبدَك ونبيَّك يقول : لكلِّ أُمَّةٍ أمين ، وأَمينُ هذه الأُمَّةِ أَبو عبيدةَ ابنُ الجرَّاح ، ولكنى سأستخلِف النفرَ الذين تُوُفّى رَسولُ اللّه وهو عنهم راض .

واختار عمرُ عليًّا وعثمانَ والزُّبيْرَ وسعدَ بنَ أَبى وقّاصٍ وطلْحةَ وعبدَ الرحمن ، وقال لهم :

ـ إذا مِتُّ فتشاوروا ثلاثةَ أَيّام ، وليُصلِّ بالناسِ صُهَيْب ، فإنَّه رجلٌ من الموالى لا يُنازِعُكم أَمركم ، ولا يأتينَّ اليومُ الرّابعُ إلاّ وعليكُم أَميرٌ منكم .

واشتدَّ به الوجع ، ودبَّ فيه الضعف ، فراحَ يُتمتمُ مُستغفِرًا ربَّه ، ثم شخَص ببصره ، وفاضتْ روحُه صاعدةً إلى السَّماء ، راضِيَةً مرْضِيَّة .

وجُهِّز عمر ، وتقدم الخمسة : علىٌّ وعثمانُ وسعدٌ والزُّبيرُ وعبدُ الرحمنِ بنُ عوْفٍ وحملوه ونزلوا

به القَبر ، ثم خرجوا من القبر ، وأخذَ عليٌّ ينفُض رأسَه ولِحيتَه ، ثم قال :

ـ رحِم اللّه ابنَ الخطّاب ، لقد ذهبَ بخيرِها ، ونجا من شرِّها .

القصص الديني

الحلقة الثالثة

قصص الخلفاء الراشدين



تأليف

عبد الحميد جودة السحار

الناشر

مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

بسم الله الرحمن الرحيم

« مَنْ نَكَثَ فإنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ، وَمَــن أوْفَـى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللّهَ ، فَسَيُؤْتِيه أَجْرًا عَظِيمًا » .

(قرآن كريم)

١

دُفِنَ عمرُ بنُ الخَّطاب ، بعد أن قتلَه أبو لؤلـؤة ، وبعد أن جعلَ الخِلافَةَ فـى علىٍّ وعثمـانَ وسـعْدِ بـنِ أبى وقَّاصٍ وعبدِ الرحمنِ بنِ عوْفٍ وطلحةَ بـنِ عُبيـدِ اللّـه . وقـد قـابلَ العبّـاسُ ابـنَ أخيـهِ علـىَّ بـنَ أبــى طالب ، بعد أن طُعِنَ عمرُ وسألَه :

ـ ما العهدُ يا أبا الحسن ؟

قال علىّ :

ـ جَعَلها فى جماعةٍ زعَم أنِّى أحدُهم .

فأطرق العبّاسُ قليلا ثم قال :

ـ يا بنَ أخــى ، لا تدخـلْ معهـم ، وارفـع نفسَـك عنهم .

فقال عليٌّ في رفق :

ـ إني يا عمُّ أكرهُ الخِلاف .

فقال العبَّاسُ في ضيق :

ـ إذنْ ترَى ما تكره .

وسرَى في المدينةِ قَلَقٌ بعد دفنِ عمر ، فراح النَّاسُ يتساءلونَ عمَّن يكونُ خليفةَ المسلمين ، وأشفق المُشفقونَ على المسلمينَ أن ينشقّوا طوائفَ وشِيَعا ، وأن يدِبَّ الخلافُ بينهم ، ولـمّا يستقرَّ الإسلامُ بعدُ في الأمصارِ التي فتحوها ، وجعل المُخلِصونَ يدعونَ اللّهَ أن يُجنِّبَهمْ فتنةَ الدُّنيا .

واتجه عليٌّ وعثمانُ وسعدُ وعبدُ الرَّحمنِ والزُّبيرُ وطلحة ، رهطُ الشُّورَى ، نحوَ غرفةِ عائشة ، لِيجتمعوا فيها ، وينتخبوا من بينهِم خليفةً للمسلمين ، وتقابلَ عليٌّ وعمُّه العبَّاس ، فقال عليّ :

ـ سعدٌ لا يخالِفُ ابنَ عمِّه عبدَ الرَّحمن ، وعبدُ الرَّحمنِ صِهرُ عثمانَ لا يختلفون ، فيوليها عبدُ الرَّحمنِ

عثمان ، أو يوليها عثمانُ عبدَ الرَّحمن ، فلو كان الآخرانِ معي لا ينفعاني ، بَلْهَ أنّي لا أرجو إلاّ أحدَهما .

فقال له العبّاس :

ـ لم أدفعْك في شيءٍ إلاّ رجَعتَ إليَّ مُستأخِرًا بما أكره ! أشرتُ عليك عندَ وفاةِ رسولِ اللّه صلّى اللّهُ عليه وسلَّم أن تسألَه فيمن هذا الأمرُ فأبيت ، وأشرتُ عليك بعد وفاتِه أن تُعاجلَ الأمرَ فأبيت . احفظْ عنّي واحدة : كلّما عرضوا عليك القول ، فقل : لا ، إلا أن يُوَلّوك .

ودخل عليٌّ حجرةَ عائشة ، ثم أقبلَ عثمان والزُّبيرُ وعبدُ الرَّحمنِ وسعد ، ولم يُقبِل طلحة ، فقد كان غائبًا ، ودخل ابنُ عمر ، وجاءَ عمرُو بنُ العاص والمُغيرةُ بنُ شُعْبَة ، فجلسا بالباب ، فلَمحهما سعد ، فحصبَهما وأقامهما ، وقال لهما :

ــ أَتُريدانِ أن تقولا حضرْنا وكنَّا فى أهلِ الشُّورَى .

ودار النِّقاش بينَ أهلِ الشُّورَى ، وكَثُر بينَهم الأخذُ والرَّدّ ، والجذْبُ والشّدّ ، وجعل كلٌّ منهم يذكر فضلَه وأحقيَّته بهذا الأمرِ دونَ الجميع ، ومرَّتْ ثلاثةُ أيامٍ ولم ينتهوا إلى رأى ، فقال عبدُ الرَّحمنِ ابنُ عوف :

ــ أتدرونَ أىُّ يومٍ هذا ؟ هذا يومٌ عزمَ عليكم صاحبُكم (عمر) أن لا تتفرَّقوا فيه حتى تستخلِفوا أحدكم .

ــ أجل .

فقال عبد الرحمن :

ــ أيُّكم يخرج منها نفسَه ، ويتقلَّدُها على أن يوليها أفضلَكم ؟ (أى على أن يختارَ أفضلَكم) .

سكتوا ، وساد السكونُ برهة ، ثم قال عبد الرحمن :

ــ أنا أنخلِعُ منها .

فقال عثمان :

ــ أنا أوَّلُ مَنْ رَضِى ، فإنّى سمِعتُ رسولَ اللّهِ صلّى اللّهُ عليه وسلَّم يقول : « أمينٌ فى الأرض ، أمينٌ فى السّماء » .

فقال الزُّبير :

ــ قد رضينا .

وقال سعد :

ــ قد رضينا .

وظلَّ علىٌّ ساكتًا لا ينطِقُ حرفا ، تذكَّرَ قولَ العبّاس له : كلّما عرضوا عليك القولَ ، قلْ : لا ، إلا أن يولّوك ؛ وهمَّ أن يقولَ : لا ، ولكنَّ صوتَ عبدِ الرَّحمنِ رنَّ فى أُذنِه .

ــ ما تقولُ يا أبا الحسن ؟

فقال علىّ :

ـ أعطِنى مَوْثِقًا لتُؤثِـرَنَّ الحقّ ، ولا تتَّبِعِ الهوَى ، ولا تخصَّ ذا رَحم ، ولا تألو الأمَّة .

فقال عبد الرحمن :

ـ أعطونى مواثيقَكم على أن تكونوا معى على من بدَّل وغيَّر ، وأن ترضوا منِ اخترتُ لكم على ميثاقِ اللّهِ ألا أخُصَّ ذا رَحِم لرَحِمِه ، ولا آلوَ المسلمين .

فأخذَ منهم ميثاقًا وأعطاهم مثلَه ، وانصرفَ الجميع وقد تُرِكَ الأمرُ بين يدَى عبدِ الرَّحمنِ بنِ عوف . وذهب عبدُ الرَّحمنِ إلى علىٍّ وقابلَه على انفِرادٍ ، وقال له :

ـ إنَّك تقولُ إنّى أحقُّ من حضر بالأمر ، لقرابتِك ، وسابقَتِك ، وحُسنِ أثَرِك فى الدّين ، ولم تبعُد ولكن أرأيتَ لو صُرِف هذا الأمرُ عنك فلم تحضُر ، من كنت ترَى من هؤلاء الرَّهطِ أحقَّ بالأمر ؟

قال على :

ـ عُثمان .

وانصرفَ من عندِ علىّ ، وذهب إلى عثمان ، وخلا به ، وقال له :

ـ تقولُ شيخٌ من بنى عبدِ مَناف ، وصِهرُ رسول اللّه صلى اللّهُ عليه وسلَّم ، وابنُ عمِّه ، لى سابقةٌ وفضل ، ولم تبعُد ، فلِمَ يُصرفُ هذا الأمرُ عنّى ؟ ولكنْ لو لم تحضُر ، فأىَّ هؤلاءِ الرَّهْطِ تراه أحقّ به ؟

قال عثمانُ دون تردُّد :

ـ علىّ .

وقابل علىٌّ سعدَ بْنَ أبى وقّاص ، وكان معه الحُسين ، فقال لسعد :

ـ اتَّقوا اللّه الذى تساءلونَ به والأرْحام ، إنَّ اللّهَ كان عليكم رقيبا ، اسألُك برَحِمِ ابنى هذا من رَسول اللّهِ صلّى اللّهُ عليه وسلَّم ، وبرَحِمِ عمِّى

حمزةَ منك ، ألاَّ تكونَ لعبدِ الرحمن لعثمانَ ظهيرًا عليّ ، فإنّى أُدْلى بما لايُدْلى به عثمان .

وراح عبدُ الرحمنِ بنُ عوْفٍ يدورُ عَلَى أصحابِ رسولِ اللّهِ صلَّى اللّهُ عليه وسلَّم ، ومن نزل المدينةَ من أُمَراءِ الأجنادِ وأشرافِ النَّاس ، يُشَاوِرُهم ويسألُهم عمَّن ينتَخبونَه خليفةً لهم ، وبلغ الجَهدُ بعبدِ الرحمن مُنتهاه ، فأرسلَ فى طلبِ الزُّبْيرِ وسعْد ، فوافاه الزُّبيرُ فى المسجد ، فسأله رأيَه للمرةِ الأخيرة ، فقال الزُّبير :

ـ نصيبى لعلىّ .

وأقبلَ سعدٌ فى سكونِ اللَّيل ، فقال له عبدُ الرَّحمن :

ـ أنا وأنت كلالَة (ابْنا عمّ) فاجعلْ نصيبكَ لى فأختار .

قال له سعد : إن اخترتَ نفسَك فنعم ؛ وإن اخترتَ عثمانَ فعلِيٌّ أحبُّ إلَىَّ . أيُّها الرَّجلُ بايعْ نفسَك ، وأرِحنْا وارفَعْ رءوسَنا .

ـ يا أبا إسحاق ، إنى قد خلعتُ نفسى منها ، على أنْ أختار . لا يقومُ مقامَ أَبى بكرٍ وعمرَ أَحدٌ فيرضَى الناس .

ـ فإنّى أَخافُ أَن يكونَ الضعفُ قد أَدركَك ، فامضِ لرأيِك ، فقد عَرَفْتَ عهدَ عمر .

وأَصبح الصباح ، وخرج النَّاسُ إلى المسجد زُرافاتٍ زُرافات ، ليَروْا ما قرّ عليه رأىُ رهْطِ الشُّورَى ، وصلَّى النَّاسُ الصُّبح ، ثم جمعَ عبدُ الرَّحمنِ الرَّهْط ، وأرسلَ إلى أمراءِ الأجناد ، وتوافدتْ جموعُ النَّاسِ حتّى ازدحمَ المسجد ، ووقف عبدُ الرَّحمن ، فسكت الجميعُ وأعاروه سمعَهم ، فقال :

ـ أيُّها الناس ، إن الناس قد أحبُّوا أن يَلْحقَ أهلُ الأمصارِ بأمصارِهم ، وقد علِموا من أميرُهم .

فصاحَ صائح : إنّا نراكَ لها أهْلا .

فقال عبدُ الرحمن : أشيروا عليَّ بغيرِ هذا .

فقال عمّارُ بنُ ياسر ، وكان يُحبُّ عليّا :

ـ إنْ أردتَ أنْ لا يختلفَ المسلمون ، فبايعْ عليّا .

فصاح المقدادُ الأسْود ، وكان من شيعةِ عليّ :

ـ صدق عمّار ، إنْ بايعتَ عليًّا سمِعْنا وأطعْنا .

فصاح عبدُ اللّه بنُ أَبى سَرْح ، وكان يُحبُّ عثمان :

ـ إن أردتَ أن لا تَخْتلفَ قُرَيْش ، فبايعْ عثمان .

فصاح آخرُ مؤمِّنا :

ـ إن بايعت عثمانَ قلنا : سمِعْنا وأطعْنا .

فثار عمّار ، وشتمَ ابنَ أبى سَرْح ، وقال فى سُخرِيَة :

ـ متى كنتَ تنصحُ المسلمين ؟ !

وسكت ابنُ أبى سَرْح ، فقد تذكّر أنَّ النبىّ قد غضِبَ عليه يومًا ، وأهدرَ دمَه .

وأخَذ بنو هاشم يعُدُّونَ مناقبَهم ، وأخذ بنو أميَّة يذكرونَ فضلهم ، وصاح عمّار :

ـ أيُّها الناس ، إن اللّه عزَّ وجلَّ أكرمنا بنبيِّه ، وأعزّنا بدينه ، فأنَّى تَصْرِفونَ هذا الأمر عن أهلِ بيتِ نبيِّكم ؟ !

فصاح أحدُ أنصارِ بنى أمية :

ـ لقد عدوتَ طورَك يابنَ سُميَّة (أمِّ عمار) ، وما أَنتَ وتأميرَ قرَيش لأنفسِها ؟

عيَّره نصيرُ بنى أَميَّةَ بأنَّه عبدٌ ليس له فى الأمرِ شىء ، ونسِىَ أنَّ الإسلامَ قد سوَّى بين العبيد والأحرار .

واقتربَ سعدُ بنُ أبى وقّاص من عبدِ الرّحمن ، وقال له :

ـ يا عبدَ الرَّحمن ، افرُغْ قبلَ أَن يفتَتن النّاس .

فأشارَ عبدُ الرّحمن ، فلاذُوا بالصمت ، فقال :

ـ إنّى قد نظرتُ وشاورت ، فلا تجعلُنَّ أَيُّها الرَّهْطُ على أَنفسِكم سبيلا .

ودعا عليًّا فقال :

ـ عليك عهدُ اللّه وميثاقُه لتعملَنَّ بكتابِ اللّهِ وسُنَّةِ رسولِه وسيرةِ الخليفتيْن من بعدِه ؟

وفرِح أَنصارُ علىّ ، حسِبوا أَنَّ عبدَ الرَّحمنِ قد بايعَ عليًّا للمسلمين ، ولكنَّ عليًّا قال :

ـ أَرجو أَن أَفعل ، وأَعملَ بمبلغِ علمى وطاقتى .

لم يشأْ علىٌّ أَن يتقيَّد بسيرةِ الخليفتينِ أَبى بكرِ وعمر ، بل رأَى أَن يعملَ بمبلغِ علمِه وطاقتِه واجتهادِه ، فدعا عبدُ الرَّحمن عثمان ، وقال له :

ـ عليك عهد اللّه وميثاقُه لتعملَنَّ بكتابِ اللّهِ وسنّة رسولِه وسيرةِ الخليفتين من بعدِه ؟

فقال عثمان :

ـ نعم .

قَبِل عثمانُ أَن يعمَلَ بكتابِ اللّهِ وسنَّةِ رسولِه وسيرةِ الخليفتينِ من قَبْلِه ، فقال له عبد الرحمن :

ـ إنّى أُبايُعك أَميرًا للمؤمنين .

فثار أَنصارُ علىّ ، وأَظهروا استياءَهم ، وقال علىٌّ لعبد الرحمن :

ـ ليسَ هذا أَوَّلَ يومٍ تظاهرتُم فيه علينا ، فصبرٌ جميل ، واللّهُ المستَعانُ على ما تصفون .

وأَسرعَ النّاسُ إلى عثمان ، وأَخذوا يبايعونَه أَميرًا للمؤمنين ، وتلكَّأَ علىّ ، فأسرع إليه عبدُ الرَّحمنِ وقرأَ : « من نكثَ فإنّما ينكُثُ على نفسِه ، ومن أَوْفَى بما عاهدَ عليهِ اللّه ، فسيُؤتيه أَجرًا عظيما » .

فراح عليٌّ يشقُّ الناس ، حتى بلغ عثمانَ الجالسَ على الدَّرجةِ الثانيةِ من المِنبر ، وهو يقول :

ـ خِدعةٌ أيُّما خِدعة .

وتقدَّم منه وبايَعه ، فأصبح عثمانُ بنُ عفّانَ أميرَ المؤمنين ، وثالثَ الخلفاء الرّاشدين .

بسم الله الرحمن الرحيم

« إنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا »

(قرآن كريم)

١

كان عمْرُو بنُ العاصِ واليًا على مِصر ، فلمّا أصبحَ عثمانُ بنُ عفّانَ أميرًا للمؤمنين ، عزل عمْرًا عن ولايةِ مِصر ، واستعمل عبد اللّه بن أبى سرْح ، فغضِب عمْرٌو غضبًا شديدا ، وحقَدَ على عثمان ، حتَّى إنّه طلَّق أُختَه التى كان متزوِّجًا منها .

وذهب عمرُو بن العاص إلى المدينة ، وقابل عليَّ ابنَ أبى طالبٍ والزُّبيرَ بنَ العوّامِ وطلحة ، وأخذ يُخبرهم أنَّ الناس فى مصرَ قد استاءوا من عثمان ، لأنَّه استعملَ عليهم عبدَ اللّهِ بنَ أبى سَرْح ، ذلك الرّجلُ الذى ماتَ النَّبِىُّ وهو عليه غضبان . وراح يذكر لهم عيوب عثمان .

وجاء مَوْسِمُ الحــج ، فـاندسَّ عمـرٌو بـين النـاس ، واستمرَّ يُحدِّثُهم عن عثمان ، فيقـول لهـم إنـه يُولّـى أقاربَه على النّاس ، وإنه يُحبُّ بنى أميَّة ، لأنه منهمْ ، وإنَّه يُعطِيهم من بيتِ مالِ المسلمين .

وكان عمــرٌو يحقِـدُ علـى عثمـانَ حِقْـدًا شَـدِيدا ، حتَّى إنه كان يُحرِّضُ عليه الراعِيَ فى غنمِه فى رأسِ الجبل .

٢

وكـان محمّـدُ بـنُ أبـى بكـر يُحـبُّ علـيَّ بـنَ أبــى طالب ، فقد تربّى محمَّدٌ فى بيتِ عليٍّ بعـد أن تـزَّوجَ من أمِّه ، فشبَّ وهو لا يعرفُ له أبًا غـيرَه . ولَمـسَ عظمةَ عليٍّ وعلمَه وعدلَه فكان يعتقدُ أنَّ عليًّـا أحـقُّ بالخلافةِ من عثمان ، لذلـك سـاءه أن تخرجَ الخلافـة

من يدِ عليّ ، واعتقد أنَّ عثمانَ أخذَها بغيرِ حقّ . فـأحسَّ عـدم ميـل إلى عثمـان ، وأراد أن يُنـاوئَ عثمان ، فخرج من المدينةِ وذهب إلى مِصر .

وأسلم عبدُ اللّه بنُ سَبأ ، وكـان يهودِيًّا مـن أهـل صنْعاء ، وكانت أمُّه سوداء ، فكان يُطلَقُ عليـه ابـن السَّوداء ، ولم يكن إسلامُه صادقا ، بل كان يُريد أن يبذرَ بذورَ الشِّقاق بين المسلمين ، ويحاولَ ضلالَتهم ، فبـدأ بالحجـاز ، يُغَيِّرُ النَّـاسَ علـى أميرِهم عثمـان ، ولكنَّه لم يجدْ من يسمعُ له ، فذهب إلى البَصْرَة ، ثـم ذهب إلى الكوفة ، وهبط إلى الشّـام ، وهيَّـج النّـاسَ على معاوية ، فأخرجه معاويةُ من الشّام ، فذهب إلى مِصر ، وتقابل مـع محمَّـد بـن أبـى بكـرٍ فـى مصـر ، فاشترك معه فـى الدَّعـوة لعلـيّ ، لا لأنَّـه كـان يحب عليًّا كما يُحبُّه محمّدُ بنُ أبى بكـر ، ولكـنِ لأنّـه أرادَ أن يفرِّقَ كلمةَ المسلمين .

وكان محمَّدُ بنُ أبى حُذيفَةَ يتيما فى حجرِ عثمان ، فلما أصبح عثمانُ أميرًا للمؤمنين ، طمِع محمَّدٌ فى أن يوليِّهُ عثمانُ عملا ، ولكنَّ عثمانَ لم يستعملْه ، لأنَّه كان صغيرَ السِّنّ ، فدخل محمدُ بنُ أبى حُذيفة على عثمان ، وطلب منه أن يوليِّهُ عملا ، فقال له عثمانُ إنَّه لا يصلُح أنْ يولِّيَهُ على المسلمين ، فحزِن محمَّدٌ وقال لعثمان :

ـ فأْذَنْ لى فَلأَخْرُج ، فَلأَطْلُب مايقوتُنى .

فقال له عثمان :

ـ اذهبْ حيث شِئت .

وجهَّزه عثمان ، وأعطاه جملا ، وأعطاه ما يكفيه ، فذهب محمَّدُ بنُ أبى حذيفةَ إلى مِصر ، فاجتمع هناك محمَّدُ بنُ أبى بكر وعبدُ اللّه بن سَبَأٍ ومحمَّدُ بنُ أبى حُذَيْفَة ، فراحوا يتحدَّثون فى خلع عثمان .

٣

أمر عثمانُ عبدَ اللّهِ بنَ أبى سَرْح أن يَخرُجَ من مِصرَ لفتحِ إفريقيَّة ، وقال له :

ـ إن فتح اللّه عليك ، فلك خُمْسُ الخُمْس من الغنائم .

فجهَّز ابنُ أبى سرْحٍ جيشا ، وخرج من مصرَ فى عشرةِ آلاف مقاتل ، ليفتَح شمالَ إفريقيَّة . وكان الرُّومُ يحكمُون شمالَ إفريقيَّة ، فتقابلتْ جيوشُ المسلمينَ وجيوشُ الرّوم ، ودارت معاركُ رهيبة ، فأيقن ابنُ أبى سرْحٍ أَنَّه لن يستطيعَ أن ينتصرَ على الرُّومِ فى إفريقِيَّة ، فأرسلَ إلى أميرِ المؤمنينَ عثمانَ بنِ عفَّانَ يطلبُ منه مَدَدا ، فقام عثمانُ وطلبَ من النَّاسِ أن يخرجُوا ، لشدِّ أزرِ جيشِ المسلمين ، فتقدَّم عشرةُ آلاف ، فيهم جماعةٌ من الصحابة ، منهم ابنُ

عبّاسٍ وابنُ عُمَرَ وابنُ عَمْرو وابنُ جعفر ، والحسنُ والْحُسين ، وعبدُ اللّه بنُ الزُّبَيْر ، وخرج الجميعُ من مدينة الرَّسول ، وساروا حتى انضمُّوا لجيوشِ المسلمينَ فى إفريقيَّة .

والتقى الجيشان . فأمر جرجيرُ ملكُ الرُّوم جيشَه أن يلتفُّوا بالمسلمين ، فأحاطوا بهم كالهالَة ، ودار القِتال ، فأحسَّ المسلمونَ أنَّ أعداءَهم أقوياء ، وأَخذ أبطالُ المسلمينَ يُدافعون عن أنفسهم ، ويهجمُونَ على الأعداءِ ، ليكسِروا حلْقَة الأعداء التى تريدُ أَن تُطبقَ عليهم ، لتقضِيَ عليهم .

كان الموقفُ رهيبا لم يُرَ أَشنعُ منه ، فالموتُ يُحيطُ بالمسلمينَ من كلِّ جانب ، وارتفعتِ الشمسُ حتى توسَّطتْ كبدَ السَّماء ، وصناديدُ المسلمينَ ثابتون ، واشتدَّتْ حرارةُ الشمس ، فراح الجيشانِ ينصرفان ، ليستعدَّا لاستئنافِ القِتال فى اليوم التّالى .

لاحظ ابنُ الزُّبيرِ غيابَ ابنِ أبى سرْحٍ عن القتال ، فتعجَّبَ من ذلك ، فما كان من أَخلاق قُوّادهم أن يتخلَّفوا عن القتال ، بل كانوا دائما فى الصُّفوف الأولى ، فسأل عن سبب تغيبُّه ، فقِيل له :

ـ إنه سمِع منادِىَ جرجيرَ يقول : من قتلَ ابنَ أبى سرْحٍ فله مائةُ ألفِ دينار ، وأُزوِّجُه ابنتى ، فخاف وتأخَّر عن شُهودِ القتال .

ذهب ابنُ الزُّبير إلى عبدِ اللّهِ بن أبى سَرْح ، ودخل عليه وقال له :

ـ لِمَ تتخلَّفُ عن القِتال ، أمن أجلِ ما نادى به جرجير ؟ فلتُنادِ أنتَ بأنَّ من قتل جرجيرَ أعطيتُه مائةَ ألفٍ ، وزوجتُه ابنتَه .

٤

اجتمع جيشُ الرُّومِ وجيشُ المسلمين ، وبرز مُنادى المسلمينَ ونادى :

ـ من قتل جرجيرَ أعطاهُ الأميرُ مائةَ ألـفٍ وزوَّجه ابنةَ جرجير .

خـاف جرجـير ، وأحـسَّ أن جميـعَ المسـلمينَ سيطلبُونَه ويُحاولون قتلَه ، ليحصُلوا على ما وعدَهم به أميرُهم ، فتـأخَّر ، وقـد شـعر بذُعْـر وقلـق ، واستمرَّتِ المعركة ، حتَّى إذا ما ارتفعتِ الشَّمس إلى كبِد السَّماء ، وارتفـع صـوتُ المؤذِّن بـالظُّهر ، انصـرف الجيشـان ليستعِدُّوا لاستئنافِ القتـال فـى اليوم التالى .

دخل ابنُ الزُّبيرِ خيمتَـه ، وراح يفكِّـرُ فيمـا شـهِدَ فى القتال ، فرأَى بفكره أن الجيشينِ يُحاربـانِ حتَّـى الظهر ، ثم ينصرِفان ، وخطرَ له خاطرٌ اطمأنَّ إليـه ، فذهب إلى عبدِ اللّهِ بن أبى سرْحٍ يقصُّ عليه ما فكَّـر فيه .

خلا ابنُ الزُّبيْرِ بعبدِ اللّه بن أبى سرْحٍ ، وقال له :

ـ إنَّ الحـربَ تـدورُ حتَّـى الظهـر ، ثـم ينصـرفُ الجيشان .

ـ نعم .

ـ أرى أن يُـترَكَ أبطـالُ المسـلمينَ فـى خيـامِهم متأهِّبين للحرب ، حتى إذا ما انصرف الرُّوم ، هجم عليهم المنتظرونَ فى الخِيام .

ـ نعمَ الرَّأى .

أُعجب ابنُ أبى سرْح بهذه الْخِطَّـة ، فـأمر أبطـالَ جيشِه بالانتِظارِ فى خيـامِهم ، وعـدمِ الاشـتراكِ فـى الحـربِ التـى تـدورُ بين الجيشـين مـن الصُّبـحِ حتَّـى الظُّهر ، والخروج عند سمـاعِ أَذانِ الظهـر ، ليحمـوا ظهرَ ابنِ الزُّبيرِ الذى سيتقدَّم لقتل جرجير .

وطلعـت الشـمس ، وخـرج الجيشـان للقتـال ، وتبودلتِ الضَّرَباتُ والطَّعنـات ، وتلاقـتِ السُّـيوف وتصـافحتِ الأجسـام ، وسـالت الدّمـاء ، وغطَّـتِ الجثّثُ المكان ، واقتربتِ الشَّمسُ من كَبدِ السَّـماء ،

فمشى التعبُ فى الأجسام ، وانتظرَ النَّاسُ سماعَ الأذان ، فقد حنَّت أجسامُهم للرَّاحة ، وأذّن المؤذّنُ بالظُّهر ، فافترقَ المتحاربون ، وانصرف كلٌّ إلى عسكره ، وهمَّ الرُّومُ بالانصراف ، وعينُ ابنُ الزُّبيرِ عَلَى ملِكهِم جرجير ، فرآه من وراء الصُّفوفِ وهو راكبٌ على بغلتِه ، وجاريتان تُظلاَّنِه بريشِ الطواويس ، فالتفتَ ابنُ الزُّبير إلى أبطالِ المسلمين الذين كانوا مُستعدّينَ للقِتال ، والذين لم يشترِكوا فى القِتال الذى كان دائرًا من الصُّبحِ حتّى الظهُّر ، وقال لهم :

ـ احموا لى ظهرى .

ثم سار بفرسِه إلى ملكِ الرُّوم ، وراح يخترِقُ الصُّفوف ، والنّاس يتركونه ، فقد حسبُوا أنَّه ذاهبٌ فى رسالةٍ إلى ملِكهم ، ولما اقتربَ منه بانَ الشرُّ فى وجهه ، فخاف الملكُ وهربَ على بغلتِه ، فأسرع

ابن الزُّبير خلفه ، وهجم فُرسانُ المسلمينَ ليحموا ظهرَ ابن الزُّبير .

ولحِقَ ابنُ الزبيرِ الملك ، فهجم عليه وطعنَه برُمحه ، ثم ضَربَه بسيفِهِ ، وأخذ رأسَه ، ونَصبه على الرُّمح ، وصاح :

ـ اللّه أكبر ... اللّه أكبر .

فهجم المسلمونَ على الأعداء ، فلما رأى البربرُ الذين فِى جيش الرُّوم ذلك ، خافوا وفرّوا ، والمسلمون من خلفِهم يقتلون ويأسِرون ، وانتهتِ المعركة ، وقد انتصر المسلمون على أعدائهم نصرًا مبينًا .

٥

أُخذتِ ابنةُ الملكِ سَبيَّة ، فقدَّمها ابنُ أبى سَرْح إلى ابنِ الزُّبْيرِ هدِيَّة ، وغنمَ المسلمونَ غنائمَ كثيرةً

وأموالا ، وقسَّم عبدُ اللّه بنُ أبى سرْحِ الغنائم ، فاحتجزَ الخُمسَ لأميرِ المؤمنين عثمانَ بنِ عفّان ، وقسَّم الباقى على المقاتلينَ بعد أنِ احتجز لنفسِه خُمسَ الْخُمس ، كما وعدَه أميرُ المؤمنين .

كان ما أخذَه ابنُ أبى سرْح سلاحًا جديدًا فى أيدِى أعداء عثمان ، فراحوا يقولون إنَّ عثمانَ يُحابى أهلَه ، ويميلُ إليهم ، ويُعطيهم فوقَ ما يُعطى المسلمين .

وشاءَ ابنُ أبى سرْح أن يُرسل إلى أمير المؤمنينَ عثمان ، يُخبره أنَّ المسلمينَ قد فتحوا إفريقيّة ، وأنّهم انتصروا على جيشِ الرُّوم ، فاختارَ ابنَ الزُّبير ، بطلَ المعركة ، ليذهبَ إلى عثمانَ بالفتحِ العظيم .

خرج ابنُ الزُّبيرِ قاصدا المدينة ، وجعلَ يطوى الصَّحارى والوديان ، ويتمنَّى أن يكون له جَناحان ليطيرَ إلى أميرِ المؤمنين ، ليُنبئه بالخبرِ العظيم ، ووصلَ

أخيرًا إلى المدينة فدخل على عُثمان ، وقد بان الفرحُ فى عينيه ، وأخذ يقصُّ على عثمانَ ما فعلَه المسلمون ، حتَّى جاءهم النصر المُبين ، فالتفتَ عثمَانُ إليه وقال :

ـ إن استطعتَ أن تُؤدِّىَ هذا للنَّاسِ فوق المِنبر .

أحب عثمانُ أن يسمعَ النَّاسُ من ابن الزُّبيرِ ما فعلَه المسلمونَ فى إفريقيَّة ، فطلب من ابنِ الزُّبير أن يُحدِّثهم بما شهد ، فخرج ابنُ الزُّبير ، وكان شابًّا ، وصعِد المِنبر ، واجتمعَ الناسُ ليسمَعُوا ما يقولُ هذا الشابُّ الذى جاءَ بالبشارة . وراح عبدُ اللّه بنُ الزُّبيرِ يقصُّ عليهم مارأى ، فاستولَى على الناس ، واستمرَّ فى إلقائِه الهادئ ، والتفتَ فإذا به يرَى أباه الزُّبيرَ فى جملة من حضر ، فلما تبيَّن وجهَه كاد أن يتلعثَم ، فقد كان يهابُه ويخشاه ، ولكنَّ الزُّبير ابتسمَ له ، وأشارَ إليه يحضُّه على استئنافِ ما كان فيه ،

فعاد إلى ابنِ الزُّبيرِ هدوءُه ، وقال وتدفَّق ، فأحسَّ الزُّبيرُ رِضا ، وأخذ يستمعُ إلى ابنهِ وقد تفتَّحت نفسُه ، وانشرحَ صدرُه ، وأحسَّ دَمعةَ فرحٍ تكاد تفرُّ من عينيه ، فمسحَها بظهرِ يدِه ، وأخذته النَّشْوَة ، وهزَّه الطَّرَب ، فأحسَّ رغبةً في ضمِّ ابنِه إلى صدرِه . وانتهى ابنُ الزُّبيرِ من قولِه ، فنزل ، فأسرعَ إليه الزُّبير ، والتفتَ إليه في حَنَان ، وقال له في إعجاب :

ـ واللّهِ لكأنّي أسمعُ خُطبةَ أبي بكرٍ الصِّدّيق حين سمِعتُ خطبتَك يا بُنيّ .

وانصرف النَّاس ، وهم مسرورون ، فقد فتح المسلمونَ إفريقيَّة ، وانتشرَ فيها الدِّينُ الإسلاميُّ الحنيف .

الحلقة الثالثة
قصص الخلفاء الراشدين

القصص الديني

عثمان وثورة الأمصار

تأليف
عبد الحميد جودة السحار

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

بسم الله الرحمن الرحيم

« الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى الْحيَاةِ الدُّنْيَا ، وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا » .

(قرآن كريم)

١

انتصر المسلمونَ على الرّومِ فى إفريقيَّة انتصارًا عظيما ، فأغضب ذلك قسطنطينَ بنَ هِرَقْل ، إمبراطورَ الرّوم ، فعزم على قتال المسلمينَ بنفسِه ، وجَهَّز خمسَمائةِ مركَب ، وخرج لقتالِ المسلمين .

وبلغ عبدَ اللّه بنَ أبى سَرْح خروجُ الرّومِ لقتالِه ، فأعدَّ المراكبَ وحمل المسلمين ، وركِب محمدُ بنُ أبى بكر ـ وكان يعتقدُ أن عليًّا أحقُّ بالخلافةِ من عثمان ، ومحمد بنُ حَذَيفة ـ وكان يطمعُ فى أَن يستعملَه عثمانُ ولم يفعل ؛ ركِبا فى مركبٍ واحد ، وأخذا يقولان للنّاس : إن دمَ عثمانَ حلال .

استعملَ عبدَ اللّه بنَ أَبى سَرْحِ وكان رسولُ اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم أباحَ دمه ، ونزل القرآنُ بكفرِه ؛ ولم يستعملْ أصحابَ رسولِ اللّه .

واستمرَّا فى عيبِ عثمانَ والنيلِ منه ، حتّى أخذ النّاسُ يتحدَّثونَ بما أحدثَ عُثمان (أىْ بما فعلَه ولم يفعلْه الرَّسولُ والخليفتانِ قبلَه) . وراح محمدُ بنُ أبى بكر يقولُ للنّاس :

ـ إنَّ أصحابَ الرَّسولِ صلّى اللّه عليه وسلَّم لا يَرْضَوْنَ عمّا يفعلُ عثمان . وقد تسلَّمتُ رسالةً من المدينةِ جاء فيها : « إنكم إنّما خرجتُم لأنْ تجاهدوا فى سبيلِ اللّه عزَّ وجلَّ ، تطلبون دينَ محمدٍ صلّى اللّه عليه وسلَّم ، فإنَّ دينَ محمدٍ قد أُفسِدَ وتُرِك ، فهلُمّوا فأقيموا دينَ محمدٍ صلّى اللّه عليه وسلّم » .

ولاحَ للمسلمينَ أسطولُ قسْطنطين ، وكان اللَّيلُ يُرخِى ستائرَه ، ولكنّها كانت ليلةً لا تعرف الهدوء ؛ كانت نواقيسُ الرُّومِ تَدُقُّ دقاتٍ متلاحقَة ، ويشقُّ أجوازَ الفضاء ابتهالاتُ المسلمينَ وتكبيرُهم ، حتّى إذَا لاحَ الصباح ، أرسل عبدُ اللّه بنُ أبى سرح

إلى الرّوم :«إن أحببتم فالسَّاحلُ حتّى يموتَ الأعجلُ منّا ومنكم ، وإنْ شِئتم فالبحر » .

فقال الرّوم :

ـ الماء .

كان الرّومُ يعرفونَ أنّه لا قِبَلَ لهم بلقاءِ المسلمينَ على الأرض ، فرأَوْا أن يُحارِبوهم فى البحر ؛ فما كانَ للعربِ علمٌ بقتالِ السُّفن ، وظنَّ الرّومُ أنها فرصةٌ طيبة ، ليغسلوا فيها عارَ هزيمتهِم فى إفريقيَّة .

واقتربت سفن المسلمين من سفنِ الرّوم حتى التصقت بها ، فرُبط بعضُها إلى بعض ، ودارت رحَى القتال ، فقفَز الرِّجال إلى الرِّجال ، يضرِبونَ بالسُّيوفِ ويَطْعَنُون بالخناجر ، فسالت الدِّماءُ ، وامتزجَتْ بمياهِ البحر ، وهَوتْ جثث القتلى بين أنياب الأمواج ، وقُتِل من الجانبين خلقٌ كثير .

وصبَر أبطالُ المسلمينَ للقتال صبرا ما صبَروه فـى مَوْطِنٍ آخـر ، حتّـى جُـرِح قسـطنطين ، ومشـى الضعفُ إليه ، ففرَّ بما بَقِى من أسطولِه ، وقـال قـائلٌ فى فَرَح : هذا هو الجهاد .

فقال محمدُ بنُ حُذَيفَة : تركنا خَلْفَنَا الجهادَ حقًا .

ـ وأىّ جهاد ؟

ـ عثمانَ بنَ عفّان .

٢

كان الناسُ فى المدينة يتهامسون ، ويتناقلونَ أخبارَ الأمصار ، ويقولن إنّ الناسَ يسـتعدون للثـورةِ علـى عثمان ، وبلغ ذلك عليًّا وطلحةَ والزُّبـيرَ وسَعدَ بنَ أبى وقّاص ، فاجتمعوا يتحدّثون بما يخوض الناسُ فيه من حديث تذمُّرِ الأمصار ، وتأهُّبهم للانقلاب علـى

عثمـانَ ، فجمعوا أمرَهـم علـى مفاتحـة عثمـانَ فـى ذلك ، فذهبوا إليه ، واجتمعوا به ، وقالوا له :

ـ يا أميرَ المؤمنين ، أيأتيك عن الناس الذى يأتينا ؟

ـ لا واللّه .

ـ فإنا قد أتانا أنَّ الناسَ فى الأمصار مُستاءون مـن عُمّـالِهم ، ومتذمِّـرونَ مـن سـوءِ تصرُّفهـم ، وأنّهـم يستعدُّونَ للثورة عليك .

فأطرقَ عثمان ، ثم رفع رأسه ، وقال :

ـ فأنتم شركائى وشهودُ المؤمنين ، فأشيروا علىّ .

ـ نُشِير عليك أن تبعـث رجـالا ممـن تثقُ بهـم إلى الأمصار ، حتّى يرجِعوا إليك بأخبارهم .

وأرسـل عثمـانُ الرِّجـال إلى الشّـام وإلى العِـراق ، وإلى مصر ليسمعوا مـن النّـاس شكاياتِهم ، فذهـب الرِّجال ، وعادوا وقالوا :

ـــ ما أنكرْنا شيئا ، ولا أنكره أعلامُ المسلمين ولا عوامُّهم . الأمرُ أمرُ المسلمين .

ولَم يَعُدْ عمَّارُ بنُ ياسر ، الذى أرسلَهُ عثمانُ إلى مِصرَ ليرى له خبرَ الناس ، فقدِ اتَّصل عمارُ بمحمدِ ابنِ أبى بكر ، ومحمدِ بنِ حُذَيفة ، والثوار ، واستمع إلى شكاياتِهم ، حتى اقتنعَ بها ، فانضمَّ إليهم .

٣

لم ينقطع دابرُ الإشاعات بعد عودةِ رسلِ عثمانَ من الأمصار ، بل استمرتْ تردُ إلى المدينة ، فيرفعها أهل الشورَى إلى عثمان ، فرأى عثمانُ أن يكتُبَ للنّاس ، يطلبُ مِمّن ظُلمَ أن يأتىَ فى موسِمِ الحج ، وأن يرفعَ إليه شكايتَه ، فيقتصَّ له مِمّن ظلمه . فكتبَ إلى النَّاس فى الشّام والعراق ومصر : « أما

بعد ، فإنّى آخُذُ العمّالَ (الحكّام) بموافاتى فى كلِّ موسم ، فلا يُرفعُ علىّ شىء ، ولا على أحدٍ من عمّالِى إلا أعطيتُه ، وليس لى ولعيالى حقٌّ قِبَل الرَّعية مَتْروكٌ لهم ، وقد رَفع إلىّ أهلُ المدينة ، أن أقوامًا يُشتَمون ، وآخرين يُضربون ؛ فيامن ضُربَ سرًّا ، وَشُتِمَ سِرًّا ، من ادَّعى شيئا من ذلك فليُوافِ المَوسم ، فليأخذْ بحقِّه حيث كان منّى أو من عُمَّالى ، أَو تصدَّقوا ، فإن اللّه يَجْزِى المتصدِّقين » .

ولم يكتف عثمانُ بذلك ، بل بعث إلى عمالِ الأمصارِ ليوافُوه ، وليسمعَ منهم ما يُسخِط الناس ، ليعملَ على إزالة أسباب شكواهم ، فلمَّا جاء إليه العمَّال ، قال لهم :

ـ ويْحكم ؟ ما هذه الشِّكاية ؟ وما هذه الإذاعة ؟ إنّى واللّه لخائفٌ أن تكونوا مصدوقًا عليكم ،

وما يعصِبُ هـذا إلاّ بـى (أى لا يتحمـل نتيجـة أعمالهم إلا عثمان) ، فقال له عُمَّاله :

ـ ألمْ تبعثْ (أى ألم تُرسل رجالاً إلى الأمصـار) ؟ ألم يرجعوا ولم يُشافِهْهم أحدٌ بشـىء ؟ لا ، واللّه ما صدق الشّاكون .

واستمرَّ عثمانُ يحادثُ عُمَّالَه ، ثـم خرج العمّالُ وبقـىَ معاويـة ، فأرسـل عثمـان إلى علـى وطلحَـةَ والزُّبيرِ وسعدِ بنِ أبى وقّاصٍ ، فجاءَ رسـولُ الخليفةِ إلى علىٍّ ، وهو جالسٌ فى المسجدِ بعد صلاةِ العصرِ يدعوه ، فلمَّا ذهب الرّسول ، التفت علىٌّ إلى عبدِ اللّهِ بن عباسٍ وقال : لمَ تراه دعانى ؟

ـ دعاك ليكلِّمَكَ .

ـ انطلِقْ معى .

ودخلا على عثمان ، فوجدا طلحةَ والزُّبيرَ وسعدًا وأناسًا من المهاجرين ، فجلسا ، فسكتَ القوم ، ونظر بعضهُم إلى بعض ، فحمدَ اللّهَ عثمان ، ثم قال :

ـ أَما بعد ، فإن ابـنَ عمِّى معاويـةَ هـذا قـد كـان غائبًـا عنكـم ، وعـن مـانِلْتُم منّـى ، وعـاتبتُكم عليـه وعاتبتُمونى ، وقد سألنى أن يكلِّمَكم ، وأَن يكلِّمَـه من أَراد . فقال سعدُ بنُ أبى وقّاصٍ فى استنكار :

ـ وما عسَى أنْ يُقالَ لمعاويةَ أَو يقول ، إلاّ ما قلتَ وقيلَ لك ؟

فقال علىّ : ذلكُم ، تكلَّمْ يا معاوية .

فالتفتَ معاويةُ إليهم وقال :

ـ أَنتُـم أَصحـابُ رسـولِ اللّه صلَّى اللّـه عليـه وسلم، وخِيرتُه فى الأمَّـة ، ووُلاةُ أَمرِ هـذه الأمَّـة ، لايطمعُ فى ذلكَ أحدٌ غيرُكم ، اخترتُم صاحبَكم من غيرِ غلبَـةٍ ولا طمَع ، وقـد كـبرتْ سـنُّه ، وولّـى عمرُه ، ولو انتظرتُم به الهرَمَ كان قريبا .

وراح معاويـةُ يخوِّفُهـم نتيجـةَ تـأليبِ النّـاس علـى عثمان ، فالتفتَ إليه علىّ ، وقال له :

ـ وما لَكَ وذلك ؟ وما أَدراك ، لا أُمَّ لك !
فقال معاويةُ فى هدوء :

ـ دعْ أمّى مكانَها ، ليستْ بَشرٍّ أمهاتِكم ، قد أَسلمتْ وبايعتِ النّبىَّ صلّى اللّه عليه وسلّم ، وأَجنْبى فيما أَقولُ لك .

فقال عثمان : صدق ابنُ أَخى ، إِنى أَخبرُكم عنّى وعمَّا وَليّت ، إِن صاحبىَّ اللّذين كانا قبلى (أَبا بكر وعمر) ظلمَا أَنفسَهما ، ومن كان منهما بسبيل (أَى من كان منهما قريبا) ، وإِنَّ رسولَ اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم كان يُعطى قَرابتَه ، وأَنا فى رَهْطٍ أهلِ عَيلةٍ وقلّةِ معاش ، فأعطيتُ أَقاربى ، ورأَيتُ أَنَّ ذلك لى ، فإن رأَيتم ذلك خطأً فرُدُّوه ، فأمرى لأمرِكم تَبَع .

ـ أعطيتَ مروانَ بنَ الحكم (قريب عثمان) فرُدَّه .
وقال الزُّبيرُ :
ـ أعْطيت عبد اللّهِ بن خالد ، فرُدَّه فوعدهم عثمانُ بردِّ ما أعطى أقاربَه ، وخرج عليٌّ وطلحةُ والزُّبيرُ وسعدٌ ومعاوية ، وأمسك عثمانُ ابنَ عَبَّاس ، فقال له :
ـ ابنَ عمّى ، ويا بنَ خالَتى . قد علمتُ أنك رأيتَ بعضَ ما رأى الناس ، فمنعك عقلُك وحلمُك من أن تُظهِرَ ما أظهروا ، وقد أحببْتُ أن تُعلِمَنى رَأيك فيما بينى وبينك ، فأعتذِر .
ـ واللّه إن رأيى لك أن تَجلَّ سِنُّك ، ويُعْرَف قدرُك وسابقتُك ، وواللّه لوددْتُ أنَّكَ لم تفعلْ ما فعلت ، مما ترك الخليفتان قَبلَك .فقال عثمانُ معاتبا :
ـ فما منعك أن تشيرَ عليَّ بهذا قبل أن أفعلَ ما فعَلْتُ ؟

ـ وما علمى أنك تفعلُ ذلك قبل أن تفعل !

٤

كاتبَ أهلُ مِصرَ أشياعَهم من أَهلِ الكوفةِ وأهلِ البصرَة ، وتواعدوا على اللقاء فى المدينة ، فخرج أهلُ مصرَ مُدَّعين الحجّ ، وخرج محمدُ بنُ أبى بكرٍ معهم ، وبَقِى محمدُ بن حُذيفَةَ فى مِصر ، وكان إذا سُئلَ عمن خرجَ يقول : خرج القومُ للعُمْرة .

ولكنه جعل يقول فى السرّ : خرج القومُ إلى إمامِهم ، فإنْ نزَعَ (أى تاب واستقام) ، وإلاَّ قتلوه .

وأوفد عبدُ اللّه بنُ أَبى سَرْحٍ إلى عثمانَ رسولاً يخبره خبرَ القوم ، فأطرق عثمان ، ثم التفت إلى من عنده ، وقال : هؤلاء قومٌ من أَهلِ مِصْر ، يريدونَ بزعمهِم العُمرة . واللّه ما أراهمْ يُريدونها ، ولكنَّ

أسرعوا إلى الفِتنة ، وطال عليهم عُمرى ، أما واللهِ لئن فارقْتُهم ليتمنّون أَنَّ عمرى كانَ طال عليهم مكانَ كلِّ يوم بسنة ، مما يَرَوْنَ من الدماء المسفوكة .

وذاع فى المدينة أَنَّ المِصريِّينَ ما جاءوا إلا لقتل أميرِ المؤمنين ، ثم دخل كِبارُ الصَّحابةِ على عثمان ، وقالوا له :

ـ إنَّ وفدَ مِصرَ يطلب عزلَ عبدِ اللّهِ بنِ أَبى سَرْح .

وأَرسلت عائشةُ أمُّ المؤمنينَ إلى عثمان تقول :

ـ تقدَّمَ إليك أَصحابُ محمّدٍ صلَّى اللّه عليه وسلَّم ، وسألوك عزْلَ هذا الرجل (عبدِ اللّه بنِ أَبى سَرْح) فأبيْتَ ، فهذا قد قتل منهم رجُلا ، فأنصِفْهم من عامِلك .

رأَى عثمانُ أَن يستجيبَ لرغبةِ المِصريِّين ، فأرسل وقال لهم : اختاروا رجلاً عليكم مكانه .

فاختارَ النّاسُ محمَّدَ بنَ أَبى بكر ، فكتب عثمان عهدَه له وولاّه .

واستعدّ المصريُّون للعودةِ إلى مِصر ، وقد فرحوا بتوليةِ محمدِ بن أَبى بكرٍ عليهم ، وحسب النّاس فى المدينةِ أَن ثورةَ الأمصارِ قد أطفئت ، ولكنْ خاب ذلك الأمل ، فقد جاءتِ الحوادثُ على غير ما يشتهى النّاس ، فعاد المِصريونَ وأَنصارُهم ليحاصِروا عثمان ، ويُريقوا دمَه الطّاهرَ الزَّكىّ .

مقتل عثمان

تأليف
عبد الحميد جودة السحار

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

بسم الله الرحمن الرحيم

« طَهَ مَا أَنْزَلنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى »

(قرآن كريم)

(سورة طه)

١

استمرَّتْ خيوطُ التآمُرِ على عثمانَ تُحاكُ فى الظَّلام ، ونال النّأسُ منه أكثرَ ما نِيلَ من أحد . وكاتَب أهلُ مصرَ أشياعَهم من أهلِ الكوفةِ وأهلِ البصْرة ، وتواعدوا على اللِّقاءِ فى المدينة ، فخرج أهلُ مِصرَ إلى المدينةِ مظهرين رغبتهم فى الحجّ ، وخرج أهلُ الكوفةِ والبَصْرَة ؛ وبالقُرب من المدينةِ سارتِ الرُّسلُ بين جماعاتِ الثُّوَّار .

بلغ عثمانَ أنَّ الثُّوَّارَ قد ساروا إلى المدينة، وكان يعلمُ منزلةَ علىٍّ فى النّاس ، فأرسلَ إليه ، يَطْلب منه أن يخرجَ لِلقائِهم وردِّهم ، فخرج علىٌّ وقابل أهلَ مِصر ، ثمَّ عادَ إلى عثمانَ وقال له :

ـ إنَّ وفدْ مِصرَ يطلبُ عزلَ عبدِ اللّهِ بنِ أبى سرْح .

كان عبدُ اللّهِ واليا على مِصر ، وقد كرِهَ النّاس ولايتَه ، وساعد على كُره النّاسِ له ، ما كان يُذيعه عنه محمَّدُ بنُ أبى بكر وأنصارُه . وقَبِلَ عثمانُ رغبةَ المِصريِّين ، فأرسل إليهم ، يقول :

ـ اختاروا عليكم رجلاً مكانَه .

فاختارَ النَّاسُ محمَّدَ بنَ أبى بكر ، فكتب عثمانُ عهدَه له وولاّه ، فتأهَّب أهلُ مصرَ للعودة إلى ديارِهم ، وسَرَى هذا النبأ فى المدينةِ فانتعشتْ ، وانقضى هذا اليومُ بسلام ، وأقبلَ اليومُ التالى ، فدخل مرْوانُ بنُ الحكَم ، وكان مستشارَ عثمانَ وقريبه ، وقال له :

ـ تكلَّم . أعلِمِ النَّاسَ أنَّ أهلَ مِصرَ قد رجَعوا وأنَّ ما بلغهم عن إمامِهم كان باطلا ، فإنَّ خُطبتَك

تسيرُ فى البِلاد ، قبل أن يتحلَّبَ (يفِدَ) النّاسُ عليك من أمصارِهم ، فيأتيكَ من لا تستطيعُ دفعَه .

فأبى عثمانُ أن يخرجَ ليخطُب ، ولكنَّ مروانَ لم يَزلْ به حتّى خرج ، واعتلى المِنبرَ وقال :

ـ أما بعد ، إنَّ هؤلاءِ القومَ من أهلِ مِصرَ كان بلغَهُم عن إمامِهم أمر ، فلما تيقّنوا أنه باطلٌ ما بلغهم عنه ، رجَعوا إلى بلادِهم .

وكان عمرُو بنُ العاصِ فى المسجد ، وكان عاملاً على مِصرَ وقد عزلَه عثمان ، فأرادَ أن يُثيرَ النَّاس على عثمان ، فقال :

ـ اتّقِ اللّهَ يا عثمان ، وتُبْ إلى اللّه .

وهمَّ عثمانُ أن يرُدَّ على عمْرو ، ولكنَّ صوتًا آخرَ نادى من ناحيةٍ أخرى :

ـ تُبْ إلى اللّه ، وأظهرِ التوبة ، يكُفَّ النَّاسُ عنك .

فرفع عثمانُ يديه مدّا ، واستقبلَ القِبلَة وقال :
ـ اللهمَّ أني أوَّلُ تائبٍ تابَ إليك .

٢

خرج محمَّدُ بنُ أبى بكر إلى مِصر ، وخرج معه عددٌ من المهاجرينَ والأنصار ، ينظرون فيما بينَ أَهلِ مِصرَ وابنِ أبى سَرْح . وانطلق الرَّكب ، وترك المدينة ، وانقضتْ ثلاثةُ أيّام ، ولمحَ النّاسُ غلامًا أَسودَ على بعير يخبطه خبطا ، فانتظروه لعلّه يقصِدُهم لحاجة ، ولكنَّه لما حاذاهم لم يتمهَّل ، ولم ينتظِر ، بل استمرَّ فى سيره . فارتابوا فى أمرِه ، وبعثوا من يطلبُه ، فجيءَ به ، فسألوه :
ـ ما قضيَّتك وما شأنُك ؟ أَهارِبٌ أم طالبٌ أحدا؟

ـ لا هذا ولا ذاك ، وإنّما أنا غلامُ أميرِ المؤمنين ، وجَّهنى إلى عامله فى مصر .
فأشار رجلٌ إلى محمَّدِ بنِ أبى بكر ، وقال :
ـ هذا عاملُ مِصر .
ـ ليسَ هذا أريد .
وأراد الغلامُ أن يستأنِفَ سيرَه ، ولكنَّ محمَّدَ ابنَ أبى بكر قبضَ عليه ، وقال له :
ـ غلامُ مَنْ أنت .
ـ غلامُ أميرِ المؤمنين .
فنظر محمّدٌ نظرةً حادّة ، وقال وهو يهُزُّه :
ـ أحقّا ؟
فقال الغلامُ فى خوْف :
ـ بل غلامُ مَرْوان .
فقال له محمَّدُ بنُ أبى بكر :
ـ إلى من أُرسلْت ؟

ـ إلى عاملِ مصر .

ـ بماذا ؟

ـ برسالة .

ـ مَعَكَ كتاب ؟

ـ لا

ـ فتِّشوه .

فَفتشوه فوجدوا معه كتابًا من عثمانَ إلى ابنِ أبى سرح ، فجمع محمَّدُ بنُ أبى بكر من كان عندَه من المهاجرينَ والأنصار وغيرِهم ، ثم فَكَّ الكِتاب بمحضَرِ منهم ، وراح يقرؤُه ، فرأى أنَّ عثمانَ يأمُر عبدَ اللّهِ بنَ أبى سرحٍ بقتلِه وقتلِ أصحابه ، فعاد محمَّدٌ إلى المدينة ، وقد عزم على قتلِ عثمان .

٣

سَمِع أهلُ المدينة أصواتَ التكبير ، فخرجوا يسألون : ما الخبر ؟ فعلِموا أنَّ المِصريِّينَ قد عادوا

لِيُحاصروا عثمانَ فى دارِه ؛ وأقبلَ أهلُ الكوفةِ وأَهل البَصرة ، وقال الثُّوَّار للناس :

ـ من كفَّ يدَه فهو آمِن

وجاء عليُّ بنُ أَبى طالب ، وقال للمِصريِّين :

ـ ماردَّكم بعد ذَهابِكم ؟

ـ أَخذْنا مع بريدٍ كتابًا بقتلِنا .

فدخل عليٌّ مع وفدٍ من المِصريِّينَ على عثمان ، فلمَّا دخل المِصريُّون لم يُسلِّموا على عثمانَ بالخلافة ، ثم قالوا :

ـ رحلْنا من مِصر ونحن لا نُريدُ إلاَّ دمَك أو تنزعَ (تُوب) فردَّنا عليّ ، ثم رجَعنا إلى بلادِنا ، حتّى أخذنا كتابَك وخاتَمك إلى عبد اللّه بنِ أبى سَرْح ، تأمرُه فيه بجلدِ ظهورِنا .

فقال عثمان :

ـ واللّه ما كتبتُ ولا أمرْتُ ولا شُوورْتُ ولا علِمت .

فقال عليُّ بنُ أبى طالب :

ـ قد صدق .

فارتاح إليها عثمان ، وقال المِصريّون :

ـ فالكتابُ كتابك ؟

ـ أَجَلْ ، ولكنه كُتِب بغير أمرى .

ـ فإنَّ الرسولَ الذى وجدْنا معه الكتابَ غلامُك؟

ـ أَجَلْ ، ولكنّه بغير إذْنى .

ـ فالجملُ جملُك ؟

ـ أَجَلْ ، ولكنه أخِذ بغيرِ علمى .

فقالوا له :

ـ ما أنتَ إلاّ صادقٌ ، أو كاذب ، فإن كنت كاذبًا ، فقد استحققتَ الخلْع ، لما أمرتَ به من سفكِ دمائنا بغير حقّها ؛ وإن كنتَ صادقًا ، فقد

استحققتَ أن تُخلعَ لضعفِك وغفلَتِك وخُبثِ بطانتِك ، لأنَّه لا ينبغى لنا أن نَترك على رقابنا من يُقتَطَعُ مثلَ هذا الأمرِ دونَه ، لضعفِه وغفلتِه ، فارْدُد خلافتَنا ، واعتزِلْ أمرَنا ، فإنَّ ذلك أسلمُ منك ، وأسلمُ لك منا .

فقال عثمان :

ـ أمَّا قولُكم تَخْلَعُ نفسَك ، فلا أنزِعُ قميصا قمَّصَنيه اللّهُ عز وجلّ ، وأكرمنى به ، وخصَّنى به على غيرى ، ولكنْ أتوبُ وأنزِع ، ولا أعودُ إلى شيءٍ عابه المسلمون ، فإنّى واللّه الفقيرُ إلى اللّه ، الخائفُ منه .

ـ فلسنا منصرفين حتى نعزِلَك ، ونستبدلَ بك .

٤

حُوصِر عثمانُ فى دارِه ، وقد حَصَره المِصريّون ، واشترك محمَّدُ بنُ أبى بكرٍ معهم ، وأرسل عليٌّ بنُ

أبى طالب ولديه الحسنَ والحُسينَ ليقوما على بابِ عثمان ، يدافعان عنه ، وجاء بنو أمية لينصروا عثمان ، ومنع الثُّوّارُ عنه الماء ، فأرسل إلى علىٍّ والزُّبيرِ وطلحة وعائشة ، يقول لهم :

ــ إنَّهم منعونا الماء ، فإن قَدَرتُم أن تُرسلوا إلينا شيئًا من الماء فافعلوا .

فجاء علىٌّ إلى الثُّوّار ، وقال لهم :

ــ يأيُّها الناس ، إن الذى تفعلونه لا يُشبه أمرَ المؤمنين ، ولا أمرَ الكافرين ، لا تقطعوا عن هذا الرَّجل الماء ، فإنَّ الرُّومَ وفارسَ لتأسِرُ فتُطعِمُ وتَسْقِى ، وما تعرَّضَ لكم هذا الرجل ، فبِمَ تستحِلُّونَ حَصْرَه وقتله ؟

فقال الثُّوّار .

ــ لا واللّه ، لا نترُكه يأكل ولا يشرب ...

وحاول الثُّوارُ اقتحامَ الباب ، فبرز لهم الحسنُ والحُسينُ وابنُ الزُّبير ، ومن كان من أبناءِ الصَّحابة ، وتضارب الفريقانِ بالسُّيوف ، فنادى عثمانُ من يدافعونَ عنه :

ــ اللّهَ اللّه ! أنتم فى حِلٍّ من نُصرتى .

فرفضوا واستمرّوا فى القِتال ، ففتح عثمانُ الباب ، وخرج ومعه السيفُ لِيُنْهيهم ، فلما رأى الثُّوارُ عثمانَ ثبتوا مكانَهم قليلا ، ثم ولّوا فزِعين ، فأقسمَ عثمانُ على المدافعينَ عنه : ليدخُلُنَّ ، فدخلوا ، فأغلق البابَ دونَ الثُّوّار .

جاء الثُّوَّارُ بنار ، وأحرقوا البابَ ، والسَّقيفة ، فأخذ الخشبَ يحترق ، وأغفَى عثمانُ بنُ عفَّانَ ، ثم استيقظَ فقال :

ــ لولا أنْ يقولَ النَّاسُ تَمَنَّى عثمانُ أمنيةً لحدَّثْتكم .

ـ أصلحكَ اللّه ، حدِّثْنا ، فلسنا نقولُ ما يقولُ النّاس .

ـ إنّي رأيتُ رسولَ اللّهِ في منامي هذا ، فقال : « إنّك شاهدٌ معنا الْجُمُعَة » .

وأكلت النّارُ الخشب ، فسقطتِ السّقيفة ، فثار أهلُ الدّار ، وخرج الحسنُ والحسينُ وأبناءُ الصّحابة يبادِرُونَ الثُّوّار ، ووقف عثمانُ يُصَلّي في هدوء ، كأنّما الأمرُ لا يعنيه ، وجعل يقرأُ في صلاتِه : « طه . ما أنْزلنا عليكَ القرآنَ لتشقَى » . واستمرَّ في قراءتِه هادئَ النّفْس ، وأتَمَّ صلاتَه ، ثم التفتَ إلى ابنِ الزبيْر ، وأمره أن يأمرَ الذين يدافعونَ عنه أن ينصرِفوا إلى منازلهم .

واستمرَّ القتالُ ناشبًا أمامَ دارِ عثمان ، فَجُرِحَ الحَسن ، فخشِيَ الثُّوّار أن يثورَ بنو هاشمٍ للحسن ، فتسلّق محمَّدُ ابنُ أبي بكر السُّور ، وتسلّقه معه بعضُ

الثُّوّار ، ودخلوا على عثمانَ دون أن يعلمَ أحدٌ بذلك مِمّن كانوا بالباب .

وتقدَّم محمَّدُ بنُ أبي بكر من عثمان ، فأخذَ بلحيتِه فقال :

ـ ما أَغنَى عنك مُعاوية ، وما أغنَى عنك ابنُ عامر ، وما أغنتْ عنك كتُبك ، على أَيِّ دينٍ أنت ؟

ـ على دينِ الإسلام ، يابْنَ أخي . ما كان أبوكَ ليأخذَ بلحيتي .

أحسَّ محمَّدُ بنُ أَبي بكر خِزْيا ، فغطى وجهَه بيدِه ، ثمَّ انسحبَ خافضَ الرّأس ، وحاول أن يدفعَ الثُّوّار المُقبلينَ لقتلِ عثمان ، ولكنّه لم يُوفّق ، فقد ضرَب أحدُهم عثمان بحربَتِه ، وضربه آخرُ بسيفِه . وقامت زوجتُه تدافعُ عنه ، فقطع السيفُ أصابعَها ، فصرختْ :

ـ قد قُتلَ أميرُ المؤمنين .

وبلغ صوتُها آذانَ المدافعينَ عنِ الباب ، فأسرعوا بالدّخول ، فوجدوا عثمانَ مقتولا ، فبكَوْا ، وذاع النَّبأ : ألا إنَّ أميرَ المؤمنينَ قد قُتل ، فأَقبلَ عليّ ، ودخل الدّارَ وهو حزين .

ولم يجرُؤ أحدٌ على دفنِ عثمان ، خشيةَ بطشِ الثُّوارِ به ، فلما جاء الليل ، خرج أهلُ الدّار بجُثمانِ عثمانَ وهم يتلفّتون ، حتّى إذا بلغوا جدارا دفنوه ، وعادوا مسرعينَ وهم خائفون ، وهكذا دُفنَ عثمان خليفةُ المسلمين ، وصِهرُ الرّسول ، في سكونِ اللَّيل ، وفي غفلةٍ من الناس !

القصص الديني

الحلقة الثالثة
قصص الخلفاء الراشدين

الإمام علي بن أبي طالب

تأليف
عبد الحميد جودة السحار

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

بسم الله الرحمن الرحيم

« وَقُلْ لِعِبَادِى يَقُولُوا الَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ، إنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ ، إنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا » .

(قرآن كريم)

١

قتل المِصريّونَ عثمان ، وخشِيَ النّاسُ الثُّوار ، فاعتكفوا فى دُورِهم ، واستمرّتِ المدينةُ تموجُ بالثُّوارِ مَوْجا ، وأصبحتْ لا أميرَ لها ، وفكّر النّاسُ فى مُبايعةِ خليفةٍ لهم ، فذهبَ المِصريّونَ إلى علىٍّ بنِ أبى طالب ، ولكنّه اختبأ منهم ؛ لم يكنْ يَقبلُ أن يبايعَه الّذين قتلوا عثمان ، وظلوا يبحثونَ عنه حتّى لقُوه ، فباعدَهم ، وظلّ يتبرّأُ مِنهُم ومن مقالتِهم .

وذهب الكوفيّون إلى الزُّبَيْر . وأرسلوا إليه رُسُلاً لمحادثته فى أمرِ البَيْعة ، ولكنّه باعدَهم وتبرّأَ منهم .

وذهب البَصْريُّونَ إلى طَلْحة ، فلقِيَهم ولم يَقبلْ بَيْعَتَهم ، وانقضَى اليومُ الأوّل ، ولم يجدِ الثُّوارُ من يقبلُ الخِلافة .

وبرزتْ شمسُ اليومِ الثانى ، فراحَ الثّوّار يفكّرونَ فيمن يُولّونَه الخلافَةَ غيرَ هؤلاءِ الّذينَ رفضوها ، فلم

يجدوا من أهلِ الشُّورَى إلا سعدَ بنَ أبى وَقَّاص ، فأرسلوا إليه وفدًا يُكلِّمهُ فى ذلك .

خرج وفدُ الثُّوّار ، وجاءوا سعدًا ، وقالوا له :

ـ إنّك من أهلِ الشُّورَى ، فرأيْنا فيك مُجتمِع ، فأقدِمْ نُبايِعْك .

فقال لهم :

ـ إنّى وابنَ عمرَ خرجنا منها . فلا حاجةَ لى فيها على حال .

وسادتِ الفوضَى المدينة ، وظلَّ الثُّوّارُ يغْدونَ ويروحونَ بين صحابةِ الرَسول ، فقد يَسمعُ منْ فى الأمصارِ بقتلِ عثمانَ ولا يسمعونَ أنّه بويعَ لأحدٍ بعدَه ، فيثورُ كلُّ رجلٍ فى ناحية ، فيكونُ فى ذلك الفساد . ورأى كبارُ الصحابةِ أن يأتوا عليًّا مرَّةً أخرى ، يعرِضون عليه الأمر ، فدخلوا عليه فى داره ومعه ابنُه محمَّد بنُ الحنفيَّة ، فقالوا له :

ـ إنَّ هذا الرجلَ قد قُتِلَ ولا بدَّ للنَّاس من إمام ، ولا نجدُ اليومَ أحدًا أحقَّ بهذا الأمرِ منك ، لا أقدَم سابقة ، ولا أقربَ من رسولِ اللّهِ صلَّى اللّهُ عليه وسلَّم .

فقال على .

ـ لا تفعلوا .

وخشِيَ النّاسُ أن يُصِرَّ على الرّفض ، فقالَ له الأشتَرُ ؛ وكان من أنصارِه :

ـ ابسُطْ يدَكَ نبايعْك .

ـ لا حاجةَ لى فى أمرِكم ، أنا معكُم ، فمن اخترتم فقد رضِيتُ به ، فاختاروا .

ـ واللّه ما نختارُ غيرَك .

ـ لا تفعلوا ؛ فإنى أكونُ وزيرًا خيرٌ من أن أكونَ أميرا .

فقال له الأشْتَر :

ـ واللّه لتمدَّنَّ يدَكَ نبايعك ، أو لَتعصـرَنَّ عينيك عليها ثالثةً (يقصد الأشتَرُ أن عليًّا حزِنَ لَمَّا بويع لأبى بكر بالخلافةِ دونَه ، وأنَّه حزِن يوم بويعَ لعثمانَ ولم يُبايَع له ، وأنّه إذا رفضَ هذه المرَّةَ الخلافةَ فسيحزنُ عليها للمرَّةِ الثالثة) .

وقال النّاسُ لعليّ :

ـ إنّه لا يَصْلُحُ النّاسُ إلا بإمرَة (أى إلاّ وعليهم أمير) ، وقد طالَ الأمر .

فقال لهم عليّ :

ـ إنكم قد أتيتُم إلَيّ ، وإنّى قائلٌ لكم قولاً ، إن قبِلتُموه قبلتُ أمرَكم ، وإلاّ فلا حاجةَ لى فيه .

فقالوا له :

ـ ما فعلتَ من شيء قبلناهُ ، إنْ شاءَ اللّه .

ـ ففى المسجد ، فإنَّ بيعَتى لا تكونُ خفِيًا ، ولا تكونُ إلاّ عن رضَا المسلمين .

وذهبَ عليٌّ إلى المسجد ، وصعِدَ المنبر ، فاجتمعَ النّاسُ إليه ، فقال :

ـ إنّى قد كنتُ كارهًا أمرَكم (أى كارهًا أن أكونَ أميرًا عليكم) ، فأبيتُم إلاّ أنْ أكونَ عليكم ، ألا وإنَّه ليسَ لى أمرٌ دونكم ، إلاّ أنَّ مفاتيحَ مالِكم معى ، ألا وإنّه ليسَ لى أنْ آخذَ دِرْهَما دونكم ، رضيتم ؟

ـ نعم .

ـ اللّهُمَّ اشهَدْ عليهم .

ودخلتْ أمُّ حبيبَةَ أختُ معاويةَ وزوجُ الرَّسول على نائلةَ زوجةِ عثمان ، وأخذتْ منها قميصَ القتيل ، وأصابعَ نائلَة التى أصيبتْ حين دافعتْ عن عثمانَ بيدِها ، وبعثتْ بها إلى أخيها معاويةَ مع رسول ، فخرج الرَّسولُ ومعه قميصُ عثمانَ مضمَّخ بدَمِه ، ومعه أصابعُ نائلة ، حتّى إذا ما بلغَ الشَّام ، أخذَه منه معاوية ، ووضعه على المِنبرِ ليراه الناس ،

وعلّق الأصابعَ فى كمِّ القميص ، فتباكى النّاسُ حولَ المِنبر ، وكان القميصُ يُرفعُ تارةً ويوضَعُ أخرى ، فيحرِّكُ معاويةُ بذلك أحقادَ النّاس ، ويدعوهم للأخذِ بثأرِ عثمان .

٢

خرجتْ عائشةُ للحَجّ ، فلما قُتلَ عثمانُ هرب مَروان وبنو أميَّة ، ليلحقوا بمكّة ، وتساقط الهُرّابُ على مكّة وعائشةُ مقيمةٌ بها ، فلمّا تساقط إليها الهُرّابُ استخبرتْ رجُلاً يقال له أخضر ، فقالت :

ـ ما صنعَ النّاس ؟

ـ قتل عثمانُ المِصريّين .

فقالت عائشة :

ـ إنّا للّه وإنّا إليه راجعون . أيقتُل قومًا جاءوا يطلبُون الحقّ ، ويُنكِرون الظُّلم ، واللّه لا نرضى بهذا .

وبقيتْ عائشةُ بمكّة . وقدِم رجلٌ آخرُ فسألته :

ـ ما صنعَ النّاس ؟

ـ قتلَ المِصْريُّونَ عثمان .

ـ العجبَ لأخضَر ، زعم أنَّ المقتولَ هـو القـاتل ، ومن أميرُ القوم ؟

ـ لم يُجِبْهم إلى التأميرِ أحد .

فقالت عائشة :

ـ أكَيِّسٌ هذا غِبَّ ما كان يدورُ بينكم من عتـابِ الاستصلاح ؟ !

وتلقَّتْ عائشةُ خبرَ مَقتَلِ عثمان ، فلم تغضَـبْ ولم تثُر ، ولم تطالبْ بدمِه ، بل بقِيت في مكَّة ، حتّى إذا ما أتَّمت حَجَّها ، وعادتْ إلى المدينة ، لقِيَها رجلٌ من أخوالِها ، فقالت له :

ـ ما وراءَك ؟

فصمت ولم يتكلَّمْ ، فقالتْ له :

ـ ويحَك ! علينا أَوْ لنا ؟

ـ لا أدرى ، قُتِل عثمان ، وبقُوا ثمانيا (أى وبقُوا ثماني ليال ، بدونِ أمير) .

ـ ثم صنَعوا ماذا ؟

ـ اجتمعوا على عليِّ بنِ أبى طالب .

غضِبتْ عائشةُ لَمّا علِمتْ أنَّ عليَّ بنَ أبى طـالبٍ صـار أميرًا للمؤمنين ، فهى لم تنْس أن علِيًّا قـال للرَّسول إنَّ النساء كثير ، لما اتَّهمها المُنافقونَ ظُلما ، فقالت :

ـ واللّه ليتَ أنَّ هـذه انطبقـتْ على هـذه ، إنْ تَمَّ الأمرُ لصاحبك (أى ليـتَ السَّماءَ انطبقـتْ علـى الأرض) . رُدُّونـى رُدُّونـى . قُتِـلَ واللّـهِ عثمـانُ مظلوما ، واللّه لأَطلبنَّ بدمِه .

وعادتْ عائشةُ إلى مكَّة ، وقد عزمتْ على تـأليب القومِ على أميرِ المؤمنين عليّ ، وبلغتْ بـابَ المسـجدِ وهى لا تقولُ شيئا . وبلغ القومَ عـودةُ أمِّ المؤمنـين ، فأسرعوا إلى المسجد ، ليرَوْا ما الخبر ، فلمّـا ازدحَـم المسجد بالنّاس ، قالت عائشة :

ـ أيُّها الناس ، إنَّ الغوغاءَ من أهلِ الأمصار وأهـلِ المياه ، وعبيـدَ أهـلِ المدينـة ، سـفكوا الـدَّمَ الحـرام ،

واستحلّوا البلد الحرام ، وأخذوا المالَ الحرام ، واستحلّوا الشهرَ الحرام . إنَّ عثمانَ قُتِلَ مظلوما ، وإنَّ الأمرَ لا يستقيمُ ولهذه الغوغاء أمر ، فاطلبوا بدمِ عثمان تُعزُّوا الإسلام .

وقامَ عاملُ عثمانَ على مكةَ ، فقال :

ـ هأنذا لها أوَّلُ طالب .

وابتدأ الناسَ يتجمَّعون فى مكةَ حول عائشة ، ليناوئوا عليّا ، وليُطالبوا بدمِ عثمان .

٣

ظلَّ طلحةُ والزُّبيرُ يُفكران فى تركِ المدينة ، فقد بايعا عليّا ، وكانا يظُنّان أنّه قد يستعملهُما ويولّيهُما على الأمصار ، ولكنْ ظهرَ أنَّ عليًّا لن يستعملَهما ، فجاءا إليه يوما ، وقالا :

ـ يا أميرَ المؤمنين ، إيْذنْ لنا فى العُمْرة .

كانا يريدانِ أن يذهبا لينضمَّا إلى عائشة ، ففطَن عليٌّ إلى ذلك ، فقال لهما :

ـ نعم ؛ واللّه ما العمرةَ تُريدان ، تُريدان أن تَمضِيا لشأنكما .

فهِمها عليّ ، ولكنه أذِن لهما بالخروجِ إلى مكّة ، فذهبا حتى قابلا عائشة ، فقالت لهما :

ـ ما وراءَكما ؟

فقالا لها :

ـ فارقنا قومًا حَيارَى لا يعرفون حقًا ، ولا يُنكرونَ باطلا .

ودخلت عائشةُ دارَها ، واجتمع عندَها الزُّبيرُ وطلحةُ ومروانُ وبنو أميَّةَ ووجوهُ القوم ، وأخذوا يتشاورون فى الأمر ، فقال قائل :

ـ نلحقُ بالشام .

ـ قد كفاكم الشامَ من يستمرُّ فى حوزته . (أى معاوية) .

ـ نسيرُ إلى علىٍّ فنُقاتله .

ـ ليس لكم طاقةٌ بأهلِ المدينة .

وأخيرًا اتَّفقوا على أن يخرُجوا إلى البَصرة .

وذهب القومُ يبحثونَ عن جملٍ شديدٍ يحملونَ عليه أمَّ المؤمنين ، ورأى رجلٌ من أنصارِ عائشةَ جملاً قويّا ، فاتَّجه إلى صاحِبه ، وقال له :

ـ يا صاحبَ الجمل ، تبيعُ جملَك ؟

ـ نعم .

ـ بكم ؟

ـ بألفِ درهم .

ـ مجنونٌ أنت ، جملٌ يُباع بألفِ دِرْهم ؟

ـ نعم ، جملى هذا .

ـ ممّ ذلك ؟

ـ ما طلبتُ عليه أحدًا قطُّ إلا أدركْتُه ، ولا طلبنى وأنا عليه أحدٌ قطُّ إلا فُتُّه .

ـ لو تعلمُ لمن نريدُه لأحسنتَ بيعَنا .

ـ ولمن تُريده ؟

ـ لأمِّك .

ـ لقد تركتُ أمّى فى بيتِها لا تُريد بَراحا .

ـ إنَّما أُريده لأمِّ المؤمنينَ عائشة .

ـ فهو لك ، فخُذْه بغيرِ ثمن .

وأخذ الرَّجلُ ناقةَ عائشةَ وسِتمائةَ دِرْهم ، فى ذلك الجملِ الشَّديد .

ونادى المنادى .

ـــ إنَّ أمَّ المؤمنينَ وطلحةَ والزُّبيرَ شاخِصون (ذاهبون) إلى البَصرة ، فمن كان يُريد إعزازَ الإسلام والطَّلبَ بثأرِ عثمان ، ولم يكنْ عندَه مَركَب ، ولم يكن له جَهاز ، فهذا جهاز ، وهذه نفقة .

وركِب الناسُ الجمال الَّتى قُدِّمتْ لهم ، وابتدأ النّاسُ فى الخروج ، فجرتِ الدُّموع ، وارتفعَ النَّحيبُ والنَّشيج ، فما من خارجٍ للقِتال إلاّ وقد بكى ، وما من شاهدٍ للخُروج إلاّ ودمعُه منهمِر ، فإنَّه ليرى خروجَ المسلمينَ لقتال المسلمين ، فلم يُر يومٌ كان أكثرَ باكيًا على الإسلامِ أو باكيا له من ذلِك اليوم ، يوم النَّحيب .

القصص الديني

الحلقة الثالثة

قصص الخلفاء الراشدين



وقعة الجمل

تأليف

عبد الحميد جودة السحار

الناشر

مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

بسم الله الرحمن الرحيم

« قُلْ مَنْ ذَا الَّذِى يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَة ، وَلاَ يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللّهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرا » .

(قرآن كريم)

١

خرجت عائشةُ وطلحةُ والزُّبيرُ ووجوهُ بنى أميَّةَ من مكة ، واستمرّوا فى السَّيرِ قاصدينَ العراق ، وقابلهم فى الطَّريقِ أحدُ أقاربِ عثمان ، فخلا بطلحةَ والزُّبيرِ وقال لهما :

ـ إنْ ظفِرتُما (أى انتصرتما) فَلِمن تجعلانِ الأمر ؟ أصدقانى .

ـ لأَحدِنا إذا اختارَه النّاس .

ـ بل اجعلوه لوَلدِ عثمان ؛ فإِنَّكُم خرجتُم تطلبونَ بدمِه .

فقالوا له فى إنكار :

ـ ندع شيوخَ المهاجرينَ ونجعلُها لأبنائِهم ! فرجع قريبُ عثمان ، ورفض أن يخرجَ معهم ، واستمرَّ

الرَّكبُ فى سيرِه ، وحان أوانُ الصَّلاة ، فأذَّن مَروان ، ثم جاء طلحةَ والزُّبيرَ ، وقال :

ـ أيُّكُما أسلِّم عليه بالإمرة ، وأؤَذِّن بالصلاة .

رأى عبدُ اللّه بنُ الزُّبير أنَّ أباهُ أحقُّ بإمرةِ القوم ، فقال :

ـ على أبى عبدِ اللّه .

وقال محمَّدُ بنُ طلحة :

ـ على أبى طلحة .

وكاد الشِّقاقُ يقعُ بين القوم ، لولا أن تداركتْ عائشةُ الأمر ، فأرسلت إلى مروان :

ـ مالك ! أتريدُ أن تفرِّقَ أمرنا ، فليُصلِّ ابنُ أختى .

فصلّى عبدُ اللّهِ بنُ الزُّبيرِ بالنَّاس ! تركتْ عائشةُ شيوخَ المهاجرين ، وجعلتها فى أبنائِهم .

ورحل القوم ، وكانوا كلَّما مرّوا على ماء أو وادٍ سألوا الدَّليل عنه ، حتَّى بلغوا ماء ، فأخذتِ الكلابُ تَنْبَح ، فَسألوا الدَّليل :

ـ أيُّ ماء هذا ؟

ـ ماءُ الحوءَب .

ففزعت عائشة ؛ فقد تذكَّرتْ يومَ قال النّبيُّ صلّى اللّه عليه وسلَّم ، لنسائه فى إنكار :

« ليتَ شِعرى ، أيَّتُكُنَّ الَّتى تنبحُها كلابُ الْحَوْءَب ؟ » لقد تيقَّنتْ فى هذه اللَّحظةِ أنَّ النَّبيَّ لا يرضَى عن خروجِها هذا ، فصرخَتْ بأعلى صوتها :

ـ أنا واللّهِ صاحبةُ كِلابِ الْحَوْءَب ، رُدّونى ، أنا صاحبةُ كلابِ الْحَوْءَب ، رُدّونى رُدّونى .

وأناختْ بعيرَها ، فأناخ النّاسُ حولَها ، وخشِيَ القومُ أن تعودَ عائشةُ إلى المدينة، ففكَّروا فى أن

يفعلوا شيئا يضطَرُّها إلى المسير ، فجاءَ عبدُ اللّهِ بنُ الزُّبير ، وقال لها :

ـ النَّجاةَ ! النَّجاةَ ! فقد أدرككم واللّهِ عليٌّ بنُ أبي طالب .

فصدَّقتْ قوله ، وسارت لتؤلِّبَ النَّاسَ على أميرِ المؤمنين .

٢

جاءَ عليًّا خبرُ خروج عائشةَ وطلحةَ والزُّبير ، فخرج وهو يرجو أن يلحقَ بهم في الطريق ، فيحولَ بينهم وبين الخروج ، ولكنْ بلغه أنَّهم فاتُوه (أى سبقوه) ، فعزم على أنْ يخرجَ في آثارهم ، وسار عليٌّ حتى نزل بجيشِه بحِيالِ جيوشِ عائشةَ وطلحةَ والزُّبير ، وراح بعضُهم يخرُجُ إلى بعض ، ولا يتحادثون إلاّ في الصُّلح ، وخشِيَ قَتَلةُ عثمانَ أن يتَّفقَ الطَّرفان ، ويتمَّ الصُّلح ، وأَنْ يقعَ عليهمُ العقاب ، فقاموا في عَمايَةِ الصُّبح ، وانسلُّوا إلى المعسكَرِ الآخر ، وأخذوا يضربونَ النَّاسَ بأسيافِهم ؛ فانتشرتِ الْجَلَبة ، فخرج عليٌّ يسألُ عن الخبر ، فقيلَ له :

ـ فُجِئْنا بقومٍ منهم يهجمُون علينا ، فرددْناهم .

فصاح عليّ :

ـ أيُّها النَّاسُ كُفُّوا .

أسرع رجلٌ إلى عائشة . فلما دخل عليها ، قال لها :

ـ أدركى ، فقد أبى القومُ إلا القتال ، لعلَّ اللّهَ يُصلِحُ بك .

وخرجتْ عائشة ، وحمل النَّاسُ هَوْدَجَها ، وشدُّوه إلى الجمل ، وأقبلتْ عائشةُ على هودجها ، فلما برزتْ من البيوت ، وكانت بحيث تسمعُ الغَوْغاء ، وقفتْ فلم تلبثْ أن سمِعتْ ضوضاءَ شديدة ، فقالت :

ـ ما هذا ؟

ـ ضجةُ العسكر .

ـ بخيرٍ أو بشرّ ؟

ـ بشرّ .

فقالت للآخذِ بخطامِ جَمَلها :

ـ تقدَّمْ بكتاب اللّه عزَّ وجلَّ ، فادعُهم إليه .

فخرج الرجلُ يحملُ المصحف ، ويدعوهم إلى كتابِ اللّه ، فخشِيَ قَتَلةُ عثمانَ الصُّلح ، فرشقوا الرَّجلَ رشْقًا واحدا فقتلوه ، وراحوا يرمونَ عائشة في هودجها ، فنادت :

ـ يا بَنِيَّهْ ، البقيةَ البقية ، اللّهَ اللّه ، اذكروا اللّهَ عزَّ وجلَّ والحساب .

ولكنَّ قتلةَ عثمانَ صَمُّوا آذانَهم ، فقالتْ عائشةُ للناس :

ـ أيُّها النَّاس ، العَنوا قَتَلةَ عثمانَ وأشياعَهم .

وأخذتْ تدعو ، وارتفعتْ أصواتُ النَّاسِ بالدُّعاء ، وسمِعَ عليُّ بنُ أبى طالب جلَبة ، فقال :

ـ ما هذه الضجَّة ؟

فقالوا له :

ـ عائشةُ تدعو ، ويدعونَ معها على قَتَلةِ عثمانَ وأشياعِهم .

فدعا عليّ :

ـ اللّهمَّ العنْ قتلةَ عثمانَ وأشياعَهم .

وخرج رجلٌ من أنصارِ عليٍّ على فرسِه بين الصَّفّين ، فقال :

ـ أيُّها النَّاس ، ما أنصفتُم نبيَّكم حيثُ أبرزتُم عَقِيلَتَه (زوجته عائشة) للسُّيوف .

فرشقوه بالنَّبل ، فحرَّك فرسَه ، وذهب إلى عليِّ ابن أبي طالبٍ ، وقال :

ـ ماذا تنتظرُ يا أميرَ المؤمنين ، وليسَ لك عند القومِ إلا الحرب .

وجد الإمامُ عليٌّ أنْ لا مفرَّ من الحرب ، فقام فقال :

ـ أيُّها الناس ، إذا هزمتُموهم فلا تُجهزوا على جريح ، ولا تقتُلوا أسيرا ، ولا تتبعوا مُوليًّا ، ولا تطلبُوا مدبرا (هاربا) ، ولا تكشِفوا عَورة ، ولا تُمثّلوا بقتيل ، ولا تقرَبوا من أموالِهم إلا ما

تجدونَه في عسكرِهم من سلاحٍ أو عبدٍ أو أَمة ، وما سوى ذلك فهو ميراثٌ لورثتِهم على كتابِ اللّه .

وخرج عليٌّ بنفسِه على بغلةِ رسولِ اللّهِ صلَّى اللّه عليه وسلَّم ، لا سلاحَ عليه ، فنادى :

ـ يا زُبيرُ ، اخرُجْ إليّ .

فخرج الزُّبيرُ وهو يحملُ سلاحَه ، فقيل لعائشةَ : إنّ الزُّبيرَ قد خرج لعليّ ، فأحسَّتْ رُعبا ، فقد كانتْ تعلمُ أنَّ مصيرَ من يخرجُ لمبارزةِ عليٍّ الموت ، فأشفقتْ على زوجِ أُختِها أسماء ، وأظهرتْ جزعَها . فقيل لها إنّ عليًّا قد خرج لا سلاحَ عليه ، فاطمأنّت .

واعتنقَ كلُّ واحدٍ منهما صاحبَه (أى تعانقا) ، فقال عليٌّ للزُّبيرِ في عِتاب :

ـ ويْحَك يا زُبير ! ما الذى أخرجك ؟

ـ دمُ عثمان .

ـ أما تذكرُ يومَ لقيتَ رسولَ اللّهِ صلَّى اللّهُ عليه وسلَّم فى بنِى بيَاضه ، وهو راكبٌ حِمَارَه ، فضحِك إلىَّ رسولُ اللّه ، وضحِكتَ أنتَ معه ، فقلتَ أنت : يا رسولَ اللّه ، ما يدعُ علىٌّ زهْوَه ، فقال لك : ليس به زهْو . أتحبُّه يا زُبير ؟ فقلتَ : إنى واللّهِ لأحبُّه ، فقال لك : إنك واللّه ستُقاتُله وأنتَ له ظالم ؟

فقال الزُّبَيْر :

ـ أستغفِرُ اللّه ، لو ذكرتُها ما خرجت .

ـ يا زُبيرُ ارجع .

ـ وكيف أرجِعُ الآن وقد اجتمعَ الجيشانِ للقِتال ! وهذا واللّه هو العارُ الذى لا يُغسَل .

ـ يا زُبيرُ ارجِعْ بالعار ، قبل أن تجمَعَ العارَ والنار .

فخرج الزُّبيرُ وقد طأطأ رأسَه ، وسار ليترك ميدان القتال .

ودارتِ المعركةُ واشتدَّتْ ، فزحف الإمامُ نحو الجملِ بنفسِه ، فى كتيبتِه الخضراءِ من المهاجرينَ والأنصار ، وحولَه بنوهُ الحسنُ والحسينُ ومحمدُ ابنُ الحنفيَّة ، ودارتْ رحَى المعركةِ الرَّهيبة ، فحمل الإمامُ حملةً واحدة ، فدخل وسطَ جيشِ عائشة ، وراح يضرِبُ بسيفِه ، والرِّجالُ تفرُّ من بين يديْه ، وتجرى هنا وهناك ، حتى خضَّبَ الأرضَ بدماءِ القَتْلى ، ثم رجعَ وقد انثنَى سيفُه ، فأقامه بركبته .

وبدأتِ الهزيمةُ تدبُّ فى صفوفِ عائشة ، فالتفَّتِ النَّاسُ حولَ الْهَوْدَج ، واشتدَّ القتال ، فكان الْهَودجُ هدفَ الإمامِ ورجالِه ، ورأى طلحةُ انهزامَ جيشِه وأنصاره ، فرفع يديْهِ إلى السَّماء ، وقال :

ـ اللَّهمَّ إن كنَّا قد دَاهَنَّا (نافقْنا) فى أمرِ عثمان وظلمْناه ، فخذْ له اليومَ منا (انتقمْ له اليوم منا) حتى ترضى .

وسمع مروانُ ما قاله طلحة ، فخشيَ أن ينسحبَ كما انسحب الزُّبير ، فرماه بسهم ، فسقط طلحةُ يجود بأنفاسِه .

وحمل رجالُ عليٍّ على الجمل ، وضربه رجلٌ بسيفِه فسقط ، فأسرعَ النَّاسُ إلى الهَوْدج ، وأنزلوهُ عن ظهرِ البعير ، وتركوه بين القتلى ، وكأنَّه قُنْفُذ ، مما رُميَ فيهِ من النَّبْل ، وأمر الإمامُ محمَّدَ بنَ أبى بكر ، وكان معه يحاربُ أختَه ، أن يذهبَ إلى عائشة ، ليحملَها بعيدا عن القتلى ، وقال له :

ـ انظرْ ، هل وصل إليها شيء ؟

وذهب محمّدٌ إلى الهَوْدَج ، وأدخلَ رأسَه فيه ،

فقالت عائشة :

ـ من أنت ؟

ـ أخوك البَرّ .

ـ الحمدُ للّه الذى عافاك .

وخرج محمّدُ بنُ أبى بكرٍ بأختِه فى سكون اللّيلِ إلى البصْرَة ، وهدأتِ المعركة ، وقد قُتِل طلحة ، وقُتل الزُّبير غدرا ؛ فقد خرج رجلٌ خلفَه بعد أن تركَ القِتالَ وقتلَه ، وأمَّنَ الإمامُ النَّاسَ جميعا ، وجهَّزَ عائشةَ للعودةِ إلى المدينة حتى إذا جاء ميعادُ خروجِها قالت للناس :

ـ يا بَنيّ ، تعتَّبَ بعضُنا على بعض استبطاءً واستزادة (أى استبطاءً للخير ، واستزادةً منه) فلا يعتدِيَنَّ أحدٌ منكم على أحدٍ بشيءٍ بلغه من ذلك ، إنّه واللّه ما كان بينى وبينَ عليٍّ فى القِدمِ إلا ما يكونُ بين المرأةِ وأحمائِها ، وإنّه عندى على مَعْتَبَتِى من الأخيار .

فقال عليّ :

ـ صدقتْ ، واللّه ما كان بينى وبينَها إلا ذلك ، وإنّها لزوجةُ نبيِّكم صلّى اللّه عليه وسلّم ، فى الدُّنيا والآخرة .

وسارتْ عائشة ، وخرج عليٌّ ليشيِّعَها أميالاً ،
وخرج بنوهُ معها يوما ، وفى الطَّريق قالتْ :
ــ ودِدتُ أَنِّى لم أَخرج ، إِنَّما قيل لى تَخرُجينَ
فُتصلِحينَ بين النَّاس .

الحلقة الثالثة
قصص الخلفاء الراشدين

القصص الديني



تأليف

عبد الحميد جودة السحار

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

بسم الله الرحمن الرحيم

« إنّكَ لاَ تُسْـــمِعُ الْمَوْتَــى ، وَلاَ تُسْـــمِعُ الصُّـمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرين ، وَمَا أَنْتَ بِهَادِى الْعُمْىِ عَنْ ضَلاَلَتِهِـمْ ، إِنْ تُسْـمِعُ إلاَّ مَــنْ يُؤْمِــنُ بآياتِنَــا فَهُــمْ مُسْلِمُون » .

(قرآن كريم)

١

انتصر الإمامُ علىٌّ فى موقِعَةِ الجمل ، وقُتِلَ طلحــةُ والزُّبَيْر ، وعادتْ عائشةُ إلى المدينةِ مُعــزَّزةً مُكرَّمَـة ، وبايعَ النّاسُ عَليّا ، فاجتمعَ لـه بَيْعَـةُ أهـلِ الحرَمَـين ، وأهلِ العراق ، وأهلِ الحجاز ، وأهلِ اليَمن ، وأهـلِ مصر ، ولم يبقَ إلاّ أهلُ الشّام ، فأرســلَ إلى مُعاويـة ، الـذى كـان واليًـا علـى الشّـامِ من قِبَـلِ عُثمـانَ بـنِ عفّان ، كتابًا جاء فيه .

« بسم اللّهِ الرَّحمنِ الرَّحيم .

فـإنَّ بيْعتـى بالمَدينـةِ لزِمتْكَ وأنـتَ بالشّـام ، لأنّــه بايَعنى القومُ الّذين بايعوا أبـا بكـر وعمـرَ وعُثمـان ، على ما بايعوا عليه » .

وطلب منه أنْ يَدخلَ فيما دخلَ فيه المسلمون ، وإلاّ قاتَله حتّى لا تتفرّقَ كلِمةُ المسلمين .

كان معاويةُ يطمعُ فى الخِلافة ، فرأى أن يستعينَ بذوى الرّأى فى مناوأةِ علىّ ، فأرسلَ إلى عمرِو بنِ العاص ، فلمَّا جاء إليه ، طلب منه أن ينضمَّ إليه فى مناوَأةِ علىّ ، فطلب عمرٌو منه أن يجعلَه واليًا على مِصر ، فقبِلَ معاويةُ ذلك ، فانضمَّ عمرٌو إليه ، وأخذا يَعملان على تأليبِ أهلِ الشّامِ على أميرِ المؤمنين .

أشارَ عمرٌو على معاويةَ أن يُقنِعَ شُرَحبيلَ ، رأسَ أهلِ الشّام ، أنَّ عليًّا قتل عثمان ، فأرسلَ معاويةُ إلى شُرَحْبيلَ رجالاً يُخبرونَه أنَّ عليًّا قتلَ عثمانَ بنَ عفّان ، فغضِبَ شُرَحبيل ، وثارتْ نفسُه ، وتيقّن أنَّ الإمامَ قتلَ عثمان ، دون أن يفطُنَ إلى أنَّ مُعاويةَ هو الذى دسَّ هؤلاء الرِّجال ، ليقولوا له ذلك ، فرجع شُرَحْبيلُ إلى معاوية ، وقال له فى انفعال :

ـ يا معاوية ، أَبى النَّاسُ إلاّ أنَّ عليًّا قتلَ عثمان ، وواللّهِ لئنْ بايعتَ له لنُخرجنَّكَ من الشَّام أو لنقتلنَّك .

فقال معاوية :

ـ ما كنتُ لأخالِفَ عليكم ، وما أنا إلا رجلٌ من أهلِ الشَّام .

وراح شُرَحْبيلُ يسيرُ فى مدائنِ الشَّام ، ويُنادى فى النّاس ، بأنَّ عليًّا قتل عثمان ، وأنه يجبُ على المُسلمينَ أن يطلُبوا بدمِه ، وكان يقومُ خطيبًا فيقول :

ـ يأيُّها النّاس ، إنَّ عليًّا قتل عثمانَ بنَ عفّان ، وقد غضِب له قومٌ فقتلَهم ، وهزمَ الجميع ، وغلب على الأرض ، فلم يبق إلاّ الشّام ، وهو واضعٌ سيفَه على عاتقِه (على كتِفِه) ثم خائضٌ بِهِ غمارَ الموت ، حتّى يأتِيَكم ، أو يُحدثَ اللّهُ أمرا ، ولا نجدُ أحدًا أقوَى على قتالِه من معاوية ، فجدُّوا وانهَضُوا .

وتأهَّب أهلُ الشَّام لقتالِ عليٍّ أميرِ المؤمنين ، ولم يدْرْ برأس أحدِهم أنَّ معاويةَ هو الذى حرَّكهم لقتال الإمام ، ليُثبِّت مُلكَه على الشَّام ، وقرَّتْ عينُ معاويةَ لمّا وجدَ جيوشَ الشَّامِ رَهنَ إشارتِه .

٢

بلغ معاويةَ أنَّ عليًّا سارَ بأهلِ العراق ، ونزل بالنُّخيلَة ، وعسكرَ بها ، فذهب إلى المسجد ، وصعِدَ إلى المِنبر ، وكان قد ألبسَه قميصَ عثمانَ وهو مخضَّبٌ بالدَّم ، فوجد حولَه الشيوخَ يبكون ، لا تَجفُّ دموعُهم على عثمان ، فصعِد المِنبر ، فقال :

ـ يأهلَ الشَّام ، قد كنتُم تُكذِّبوننى فى علىّ ، وقد استبانَ لكم أمرُه . واللّهِ ما قتل خليفتَكم غيرُه ، وهو أمرَ بقتله ، وألَّبَ النَّاسَ عليه ، وآوى قتلتَه ،

وهم جندُه وأنصارُه وأعوانُه ، وقد خرج بهم قاصدًا بلادَكم وديارَكم لإبادتِكم ؛ يأهلَ الشَّامِ ، اللّهَ اللّهَ فى عثمان ، فأنا ولىُّ عثمان ، وأحقُّ من طلب بدمِه ، وقد جعلَ اللّهُ لولىِّ المظلومِ سلطانا ، فانصروا خليفتَكم المظلوم ، فقد صنع به القومُ ما تعلمون ، قتلوه ظُلمًا وبَغْيا ، وقد أمرَ اللّهُ بقتالِ الفئةِ الباغية ، حتى تفىءَ إلى أَمرِ اللّه .

وسارَ الإمامُ فى خمسينَ ومائةِ أَلفٍ من أهلِ العراق ، وسار معاويةُ فى نحوٍ من ذلك من أَهلِ الشّامِ ، وسبق معاويةُ عليًّا إلى صِفّين : فنزل أَهلُ الشامِ منزِلاً اختاروه ، بحيث كان الماءُ فى أَيديْهم ، وقد قرَّ رَأيهُم على أَن يمنعوا أَهلَ العراقِ الماء .

وبلغَ الإمامُ علىٌّ صِفّين ، ونزل بالقربِ من جيوشِ الشّام ، وأَرادَ رجالُه أن يشرَبوا ، فمنعهم أَهلُ الشَّام ، فذهبوا إلى الإمام ، وأَخبروه بذلك ،

فأرسلَ الإمامُ إلى معاويةَ رسولاً يقولُ لـه : خلِّ بين النّاسِ وبينَ الماء .

فقام معاويةُ فى جيشه ، فقال :

ـ يأهلَ الشّام ، هذا واللّهِ أَوَّلُ الظَّفَر (النصر) ، لا سقانى اللّهُ وسقَى أَبا سفيان ، إن شربوا منه حتى يُقتَلوا بأجمعِهم عليه .

فقال رجلٌ من أَنصارِ الإمامِ له :

ـ يا أَميرَ المؤمنين ، أَيمنعُنا القومُ ماءَ الفُراتِ وأَنتَ فينا ومعنا السيُّوف ؟

وهجم أَهلُ العراقِ على أَهلِ الشّام ، فأَزالوهم عن الماء ، وأَصبحَ الماءُ فى أَيدى أَهلِ العراق ، فقالوا :

ـ واللّه لا نَسْقيهم .

وبلغ ذلك الإمام ، فأرسل إلى رجالِه يقول :

ـ خُذوا من الماءِ حاجتَكم ، وارجعوا إلى عسكرِكم ، وخلوُّا بينَهم وبينَ الماء ، فإنَّ اللّهَ قد نصَرَكم ببغيِهم وظلمِهم .

منع معاويةُ عليًّا الماءَ لمّا كان الماء فى يده ، ولكنَّ عليًّا الرَّجلَ الكريم ، قد خلَّى بين أَعدائِه وبين الماء ، لمّا أَصبح الماءُ فى يدِه ؛ فما جاء عليٌّ إلى الشّامِ ليقتُلَ النّاس ، بل جاء وهو يُريدُ أَن يجمعَ المسلمينَ على إمام واحد ، حتّى لا تتفرَّقَ كلمتُهم ويدِبَّ الضعفُ فيهم .

٣

أَشفق الجميعُ من الحرب ، وخرج قُرّاءُ أَهلِ العراق ، وقُرَّاءُ أَهلِ الشّام ، وعسكروا ناحِيةَ صِفّين ، وذهب قرّاءُ أَهلِ العِراقِ إلى معاويةَ فلمّا دخلوا عليه قالوا له :

ـ يا معاوية ، ما الذى تطلُب ؟

ـ أطلبُ بدمِ عثمان .

ـ ممَّن تطلبُ بدمِ عثمان ؟

ـ من عليّ .

ـ وعليٌّ عليه السلامُ قتلَه ؟

ـ نعم ، هو قتَله وآوَى قاتليه .

وانصرفوا من عِندِه ، فدخلوا على عليّ ، فقالوا :

ـ إنَّ معاويةَ يزعُم أنّك قتلتَ عثمان .

ـ اللّهمَّ يكذبُ فيما قال .. لم أقتلْه .

واستمرَّت السِّفاراتُ ثلاثةَ أشهر ، واستمرَّ الإمامُ يجادلُ رسُلَ معاوية ، ليُقنِعَهم أنّه لم يأمرْ بقتلِ عثمان ، ويدعوهم إلى كتابِ اللّهِ عزَّ وجلَّ ، ولكنَّ رسُلَ معاويةَ لم يقتنعوا ، وخرجوا من عِندِه وقد عزموا على الحرب ، فقال الإمام :

ـ « إنَّك لا تُسمعُ الموتَى ، ولا تُسمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ إذا ولَّوا مُدْبرين ، وما أنتَ بهادى العُمْيِ عن ضلالتِهم ، إن تُسْمِعْ إلاّ من يؤمنُ بآياتِنا فهم مُسلمون » .

٤

تَأهَّب الجيشانِ للقتال ، ثم اختلطَ الرِّجال ، ونشِبتِ الحرب ، وسقط الرِّجال قتلَى ، فقام الإمامُ بين الصَّفينِ ثم نادى :

ـ يا معاوية ! يا معاوية !

فقال معاوية :

ـ اسألوهُ ما شأنه ؟

فقال عليّ .

ـ أُحِبُّ أن يظهرَ لى ، فأكلِّمَهُ كلمةً واحدة .

فخرج بين الصَّفينِ معاويةُ ومعه عمرُو بنُ العاص ، فلمّا قاربا الإمام ، لم يلتفتْ إلى عَمرو ، وقال لمعاوية :

ـ ويحَك ! علامَ يقتتلُ النّاسُ بينى وبينَك ، ويضربُ بعضُهم بعضا ؟ ابرُز إلىّ فأيُّنا قتل صاحبَه فالأمرُ له .

فالتفتَ معاويةُ إلى عَمرو بن العاص ، فقال :

ـ ما ترى يا أبا عبدِ اللّه ، أُبارزُه ؟

فقال عمرٌو فى دَهَاء :

ـ لقد أنصفكَ الرَّجُل .

فقال معاويةُ لعمْرو :

ـ يا عَمرَو بنَ العاص ، ليس مثلى يُخدَعُ عن نفسِه ، واللّه ما بارَزَ ابنُ أبى طالبٍ رجلاً قط إلا سقَى الأرضَ بدمِه .

خاف معاويةُ أن يُبارزَ عليًّا ، فانصرف راجعا دونَ أن يتكلّم ، وظلَّ يخترقُ صفوفَ جيشه وهو خائف ، حتى انتهى إلى آخرِ الصُّفوف وعمرٌو معه ، فلما رأى عليٌّ عليه السَّلام ذلك ضحك وعاد إلى موقِعه .

وزحف الناس بعضُهم إلى بعض ، فارتَمَوا بالنَّبلِ والحِجارة ، ثم تطاعنوا بالرِّماح حتى تكسَّرت ، ثم مشى الناسُ بعضُهم إلى بعض بالسَّيف وعَمَدِ الحديد ، فلم يسمعِ السَّامعُ إلا وقعَ الحديدِ بعضِه على بعض ، وراح الإمامُ يغوصُ فى صفوفِ الشّام ، يضرِبُ بسيفِه ، ثم يخرجُ به منحنيا ، وفطَنَ معاوية أَنَّ عليًّا سينتصرُ عليه إذا استمرَّ القتال ، فالتفتَ إلى عمرِو بنِ العاص ، وقال :

ـ ما ترى ؟

فقال له عمرو :

ـ إنَّ رجالَك لا يقومون لرجالِه ، ولستَ مثلَه . هو يقاتلُ على أمر ، وأنت تقاتلُ على غيرِه ؛ إنك تريدُ البقاءَ وهو يريدُ الفَناء ، وأهلُ العراقِ يخافون منك إن ظفِرتَ بهم ، وأهلُ الشَّامِ لا يخافونَ عليًّا إنْ ظفِر بهم ، (لأنَّ عليًّا رجلٌ كريمٌ فلن يعذِّبَهم) . ولكن ألقِ إليهم أمرًا إن قبِلوه اختلفوا ، وإن ردّوه

اختلفوا ، اُدعُهم إلى كتابِ اللّه حَكَمًا فيما بينك وبينهم .

وربط معاويةُ وأهلُ الشَّامِ المصاحفَ على أطرافِ الرِّماح ، ورفعوها ، فنظر عليٌّ وأهلُ العراق ، فإذا بالمصاحفِ مرفوعة ، ثم قامَ رجالٌ من أهلِ الشَّامِ ونادوا :

ـ يا معشرَ العرب ، اللّهَ اللّهَ فى نسائِكم وبناتِكم ، فمن للرُّومِ والأتراكِ وأهلِ فارسَ غدًا إذا فنيتُم ؟ اللّهَ اللّهَ فى دينكم . هذا كتابُ اللّهِ بيننا وبينكم .

فقال عليّ :

ـ اللّهمَّ إنك تعلمُ أَنَّهم ما الكتابَ يريدون ، فاحكُم بيننَا وبينَهم ، إنَّك أَنت الحكمُ الحقُّ المبين .

لم يشأْ عليٌّ أن يُخدَع بخُدعةِ ابنِ العاص ، أراد أن يُقاتلَ معاوية ، حتَّى يتمَّ له النصر ، ولكن جاءه زهاءُ

عشرينَ أَلفًا مـن أهلِ العراقِ مقنّعينَ فى الحديد ، شاكى السِّلاح ، سيوفُهم على عواتقِهم ، فقالوا له :

ـ يا عليّ ، أجبِ القومَ إلى كتابِ اللّهِ إذا دُعيتَ إليه ، وإلا قتلناكَ كما قتلنا ابنَ عفّان ، فواللّه لنفعلنَّها إنْ لم تُجبْهم .

وصاحَ صائحٌ مِمَّن كانوا يروْنَ استمرارَ القتال ، حتى يتمَّ النَّصرُ لعليٍّ وأهلِ العراق :

ـ خُدِعتُم واللّه فانخدعتُم ، ما أنتُم برائين بعدها عِزًّا أَبدا .

فسَبُّوه وسَبَّهم ، فصاح بهم عليٌّ فكفّوا ، ثم تصايح الرَّاغبونَ فى التحكيم :

ـ إن عليًّا أميرَ المؤمنينَ قد رَضِيَ بحُكمِ القرآن .

واضطُرَّ الإمامُ بعد أَن اختلفَ أَنصارُه أَن يقبلَ التحكيم ، ونجحت خُدعةُ عمرِو بنِ العاص .

القصص الديني

الحلقة الثالثة
قصص الخلفاء الراشدين



تأليف
عبد الحميد جودة السحار

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

بسم الله الرحمن الرحيم

« وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ ، وَلا تَنْقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ، وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً ، إِنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ » .

(قرآن كريم)

١

دار القتالُ رهيبا فى « صِفّين » بين الإمامِ علىٍّ ومعاوية ، وأحسَّ معاويةُ أنَّ الغلبةَ لِعَلىّ ، فأمر أهلَ الشَّامِ برفعِ المصاحفِ على الرِّماح ، فاستقبل أهلُ الشَّامِ عليًّا بمائةِ مُصْحَف ، ووضعوا فى كلِّ مُجَنَّبةٍ مائتى مُصحَف ، ثم قام رجالٌ من أهلِ الشَّام ونادوا :

ـ يا معشرَ العرب ، اللّهَ اللّهَ فى نسائكم وبناتِكُمْ . فمن للرُّومِ والأتراكِ وأهلِ فارسَ غداً إذا فنيتُم . هذا كتابُ اللّه بيننا وبينَكم .

وخُدِعَ أهلُ العِراق ، فقالوا لعَلىّ :

ـ يا علىّ ، أَجبِ القومَ إلى كتابِ اللّهِ ، إذ دُعيت إليه ، وإلاّ قتلناك .

وقبِلَ علىّ هذه الخديعةَ وهو كاره ، وجاءه أحدُ الذين يُحبِّذون التحكيمَ من رجالِه ، وقال له :

ـ يا أَميرَ المؤمنين ، ما أرى النَّاسَ إلاّ وقد رضُوا ، وسرَّهم أَن يُجيبوا القومَ إلى ما دعَوْهم إليه من حُكمِ القرآن ، فإن شئتَ أَتيتُ معاوية ، فسألتُه ما يريد ، ونظرتُ ما الذى يسأل .

ـ إيته إنْ شئت .

فأتاه فسأله فقال :

ـ يا معاوية ، لأىِّ شيء رفعتُم هذه المصاحف ؟

ـ لنرجعَ نحن وأنتم إلى ما أمَر اللّهُ به فى كتابه ، فابعثُوا منكم رجلاً ترضونَ به ، ونبعث منّا رجلا ، ثم نأخذُ عليهما أن يعمَلا بما فى كتابِ اللّه ، لا يَعدُوَانِه ، ثم نتّبعُ ما اتّفقا عليه .

ـ هذا هو الحقّ .

وقال النَّاس :

ـ قد رضِينا بحكمِ القرآن .

وقال أهلُ الشَّام :

ـ فإنّا رضِينا واخترْنا عَمرَو بنَ العاص .

وقال بعضُ أهلِ العراق :

ـ فإنّا قد رضِينا واخترْنا أبا موسَى الأشعرىّ .

ـ إنّى لا أرضَى بأبى موسى ، ولا أَرى أن أُوَلِّيَه ، ولكن هذا ابنُ عبَّاس أُولِّيه ذلك .

كان ابنُ عبَّاس ابنَ عمِّ علىّ ، لذلك قال بعضُ أهل العراق :

ـ لا نريد إلاّ رجلاً هو منك ومن معاويةَ سواء ، ليس إلى واحدٍ منكما بأدنى منه إلى الآخر .

فقال علىّ :

ـ إنَّ معاوية لم يكنْ ليضع لهذا الأمرِ أحداً هو أوثقُ برأيهِ ونظرِه من عمرو بن العاص ، وإنّه لا يصلُح للقرشىِّ إلا مثلُه ، فعليكم بعبدِ اللّهِ بن عبّاس ، فارموه به ، فإنَّ عمْرا لا يعقِدُ عقدةً إلاّ حَلَّها عبدُ اللّه ، ولا يحِلُّ عقدةً إلا عقدَها ، ولا يُبرِمُ أمراً إلاّ نقضَه ، ولا ينقُض أمراً إلا أبرمَه .

فرفضوا ذلك وأَبَوْه ، فقال علىٌّ فى ضيق :

ـ قد أبيتُم إلاّ أبا موسى ؟

ـ نعم .

ـ فاصنعوا ما أردتُم .

٢

ذهب رجالُ الإمامِ إلى معاوية ، لكتابةِ وثيقةِ الصُّلح ، فكتبوا :

« هذا ما تقاضَى عليه أميرُ المؤمنين » .

فقال معاوية :

ـ بئسَ الرجلُ أنا إنْ أقررتُ أنَّه أميرُ المؤمنينَ ثم قاتلتُه .

وقال عمرو :

ـ اكتُب اسمَه واسمَ أَبيه ، إنما هو أميرُكم ، وأما أميرُنا فلا .

فخرج رجالُ الإمامِ إليه ، وأطرق عليٌّ يفكر ، فقال له أحدُ أنصارِه :

ـ لا تمحُ اسمَ إمرةِ المؤمنينَ عنك ، فإنّي أتخوَّفُ إن محوتَها ألاّ ترجِعَ إليك أبدا ، لا تمحُها وإن قَتل الناسُ بعضُهم بعضا .

فأبى عليٌّ أن يمحُوَها ، حتى جاءه بعضُ أهل العراق وقالوا له :

ـ امحُ هذا الاسم .

فقال الإمامُ في حسرة :

ـ لا إلهَ إلاّ اللّه ، واللّهُ أكبر ، سُنَّةٌ بسُنَّة ، أما واللّهِ لعلَى يديَّ دار هذا الأمرُ يومَ الحُدَيْبية ، حين كتبتُ الكتابَ عن رسولِ اللّهِ صلى اللّهُ عليه وسلم : « هذا ما تصالح عليه محمدٌ رَسولُ اللّهُ صلّى اللّه عليه وسلّم وسُهيْلُ بنُ عمرو » . فقال سُهيْل : لا أُجيبكُ إلى كتابٍ تُسمَّى فيه رسولَ اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، ولو أعلمُ أنَّكَ رسولُ اللّهِ لم أقاتِلْك ، إنّي إذًا ظَلمْتُكَ أن منعتُك أن تطوفَ ببيتِ اللّه ، وأنت رسولُ اللّه ، ولكن اكتُب « محمدُ بنُ عبدِ

اللّه » أجبْك . فقال محمدٌ صلّى اللّه عليه وسلّم :
« يا عليّ ! إنّي رسولُ اللّه ، وإنّي لمحمدُ ابنُ عبدِ اللّه ، ولن يمحوَ عنّي الرِّسالَةَ كتابي إليهم من محمّدِ بنِ عبدِ اللّه » . فاليومَ أكتُبها إلى أبنائِهم ، كما كتبها رسولُ اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم إلى آبائهم سُنَّةً ومَثَلا .

وكُتِبتْ وثيقةُ الصُّلحِ على أنَّ عليًّا ومن معه من أَهلِ العراق ، ومعاويةَ ومن معه من أَهلِ الشَّام ، قد نزلا عند حُكمِ اللّه وكتابه ، فإذا لم يجدْ أَبو موسى الأَشعريُّ وعمرُو بنُ العاصِ في القرآن حُكْما ، حَكَما بما يجدانِ في السُّنَّةِ العادلةِ غيرِ المفرِّقة ، وعلى عليٍّ ومعاويةَ وتبيعتِهما وضعُ السِّلاحِ إلى انقضاء هذه المدَّة ، وهي من رمضان إلى رمضان ، على أنْ يرجعَ أهلُ العِراق إلى العراق ، وأهلُ الشّامِ إلى الشّام ، وعلى أن يكونَ الاجتماعُ إلى دُومةِ الجندل .

ووقَّعَ عليٌّ الوثيقة ، وقام رجلٌ إلى الإمامِ عليٍّ أميرِ المؤمنين ، وقال له :

ـ يا أميرَ المؤمنين ، ما إلى الرُّجوعِ عن هذا الكتابِ سبيل ؟ فواللّهِ إنّي لأخافُ أن يورِثَ ذُلاّ .

فقال عليّ :

ـ أبعدَ أن كتبناهُ ننقُضُه ؟ إنَّ هذا لا يحِلّ .

وندِمَ أناسٌ من أصحابِ عليٍّ على قبولِ التحكيم ، بعد فواتِ الأوان ، كما هي عادتُهم ، فنادَوا من كلِّ جهة ، وفي كلِّ ناحية :

ـ لا حَكمَ إلاَّ للّه ، الحكمُ للّه يا عليُّ لا لك . لا نرضَى أن يحكمَ الرِّجالُ في دينِ اللّه ، إن اللّه قد أمضَى حكمَه في معاويةَ وأصحابه ، أن يُقْتلوا أو يَدْخلوا في حكمِنا عليهم . وقد كانت منا زَلَّةٌ حين رضِينا الحكمَيْن ، فرجَعْنا وتُبنا ، فارجِع أنت يا عليُّ كما رجَعْنا ، وتبْ إلى اللّه كما تُبْنا ، وإلا برِئنا منك .

ما كان عليٌّ ممن ينقُض عقدا ، فقال لهم :

ـ ويحَكم ! أبعدَ الرِّضا والميثاقِ نرجع ؟ أو ليسَ اللّه تعالى قال : « أوفُوا بالعُقود » ؟ وقال : « وأوفوا بعهدِ اللّه إذا عاهدتُم ولا تنقُضُوا الأَيمان بعد توكيدِها ، وقد جعلتُم اللّه عليكم كفيلا ، إن اللّهَ يعلم ما تفعلون » ؟ وأبَى عليٌّ أن ينقُض عهدَه ، وأبى هؤلاءِ الرِّجالُ إلاّ أن يخرجُوا عليه ، ولذلك سُمُّوا « الخَوارج » وعاد الإمامُ إلى الكوفة ، وفارقه الخَوارج .

٣

اجتمع عمرٌو وأبو موسى في دُومةِ الجندل ، وحضر الناسُ ليستمِعوا قولَ الرَّجلين ، فقال عمرٌو لأبى موسى :

ـ يا أبا موسى ، إنْ قال قائلٌ إنَّ معاويةَ من الطُّلَقاء (الذين عفا النبيُّ عنهم بعد فتحِ مكة) وأبوه رأسُ الأحزاب ، لم يبايْعه المهاجرون والأنصار

فقد صدق ، وإذا قال إنَّ عليًّا آوى قتلةَ عثمانَ ، وقتل أنصارَه يوم الجمل ، وبرز على أهلِ الشّام بصِفِّينَ فقد صدق ، وفينا وفيكم بقيَّة ، وإن عادتِ الحربُ ذهب ما بقِي ، فهل لك أن نخلعَهما جميعا ، ونجعلَ الأمرَ لعبدِ اللّه بن عُمر ، فقد صحِبَ رسولَ اللّه صلّى اللّه عليه وسلَّم ، ولم يبسُط في هذه الحربِ يدًا ولا لسانا ، وقد علمتَ من هو ، مع فضلِه وزُهدِه وورَعِه وعلمه .

كان أبو موسى لا يعدِلُ بعبدِ اللّه بن عمرَ أحدا ، لمكانِه من رسولِ اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، ومكانِه من أبيه ، فقال مسرورا :

ـ جزاكَ اللّه بنصيحتِك خيرا .

واجتمع رأيُهما على ذلك ، فقاما أمام الشهود ، فقال عمرو :

ـ يا أبا موسى ، ناشدتُك اللّه تعالى ، من أحقُّ بهذا الأمر ، من أوفى أو من غَدَر ؟

ـ من أوفى .

ـ يا أبا موسى ، نشدتُك اللّه تعالى ، ما تقولُ في عثمان ؟

ـ قُتل مظلوما .

ـ فما الحكمُ فيمن قَتل ؟

ـ يُقتل بكتابِ اللّه تعالى .

ـ فمن يقتُله ؟

ـ أولياءُ عثمان .

ـ فإنَّ اللّه يقول في كتابِه العزيز : « ومن قُتِل مظلوما فقد جعلنا لوليِّه سلطانا » ، فهل تعلمُ أن معاويةَ من أولياء عثمان ؟

ـ نعم .

قال عمرٌو للقوم :

ـ اشهدوا :

فقال أبو موسى للقوم :

ـ اشهدوا على ما يقولُ عَمرو : قُمْ يا عمرو ، فقل وصرِّح بما اجتمع عليه رأْيي ورأْيك ، وما اتفقنا عليه .

فقال عَمروٌ في دهاء :

ـ سبحانَ اللّه ! أَقومُ قبلَك وقد قدَّمك اللّه قبلي في الإيمانِ والهجرة ، وأَنت وافدُ أَهلِ اليمنِ إلى رسولِ اللّه ، ووافدُ رسولِ اللّه إليهم ، وبك هداهُم اللّه وعرَّفهم شرائعَ دينِهِ وسنَّةَ نبيِّه ، وصاحبُ مغانم أَبي بكر وعمر ؟ ولكن قمْ أَنت فقلْ ، ثم أَقومُ فأَقول .

فقام أَبو موسى فحمد اللّه ، وأَثنى عليه ، ثم قال :

ـ إنَّ خيرَ النّاسِ للنَّاسِ خيرُهم لنفسِه ، وإنّي لا أُهلِكُ ديني لصلاحِ غيري . إنَّ هذه الفتنةَ قد أَكلتِ العرب ، وإنّي رأَيتُ وَعمرًا أَن نخلعَ عليًّا

ومعاوية ، ونجعلَها لعبدِ اللّهِ بن عُمر ، فإنّـه لم يبسُط في هذه الحربِ يدًا ولا لسانا .

ثم قام عمرٌو وقال :

ـ إنَّ هذا قد قال ما سمِعتُم ، وخلعَ صاحبَه ، وأنـا أخلعُ صاحبَه كما خلعَه ، وأُثبِـتُ صـاحبى معاويـة ، فإنَّه ولىُّ عثمانَ بنِ عفّانَ رضى اللّه عنــه ، والطـالبُ بدمِه ، وأَحقُّ الناس بمقامِه .

فقال أبو موسى فى غضب :

ـ مالك ، لا وفّقَك اللّه ، غدرتَ وفجـرت ، إنما مثَلُـك كمثلِ الكلـب ؛ إن تَحْمِـل عليـه يلهــثْ أو تتركهُ يلهث .

فقال له عمرو :

ـ إنما مثَلك كمَثلِ الحِمَارِ يحمِل أسفارا .

٤

وبلغ الإمامَ خديعة عمرٍو لأبى موسى ، فقـام فـى الكوفة ، فخطب النَّاس ، فقال :

ـ ألا إنَّ هذيــن الرَّجلـين اللَّذيــن اخترتُموهمـا حَكَمين ، قـد نبـذا حكـمَ القـرآن وراء ظهورِهمـا . وأَحيَيا ما أمـاتَ القـرآن ، واتَّبـعَ كـلٌّ واحـدٍ منهمـا هواه بغيرِ هُدًى من اللّه ، فحكما بغـيرِ حُجَّـةٍ بيِّنـة ، ولاسُنَّةٍ ماضية ، واختلفا فى حكمِهما ، وكلاهمـا لم يرشُـد ، فـبرِىءَ اللّـهُ منهمـا ورسـولُهُ وصـالِحُوا المؤمنين . استعِدُّوا وتأهَّبوا للمسيرِ إلى الشَّام .

وكتـب إلى الخـوارجِ أن يوافقـوهُ ليسـيرُوا معَـه لقتالِ معاوية ، ولكنَّ الخوارجَ رفضوا ، وأراد الإمامُ أن يسيرَ بأهلِ العراقِ إلى أهــل الشَّـام ، ولكـنَّ أهـلَ العراقِ لم يُطيعوه . بل طلبُوا منه أَنْ يقاتلَ الخوارج ، فسـار حتّى نـزل المدائن ، والتَقـى بـالخوارج عنــد النَّهْـرَوان ، ودارت بينَــه وبينَهــم معرَكــةٌ رهيبــة ،

وانتصرَ الإمامُ عليهــم ، ثــم ســار بالنـاَّسِ حتـى نـزل بالنُّخيلة ، فعسكر بها ، وأمر النــاس أن يـلزَموا معَـه عسكرَهم ، ويوطِّنــوا أنفسَـهم علـى الجهـادِ ، حتـى يسيروا على عدوِّهم مـن أهـلِ الشـّأم ، فأقـاموا معـه أيامـا ، ثـم رجعـوا يتســـلّلون ويدخلـونَ الكوفـة ، وتركوا عليًّا وما معه إلاّ نفرٌ من وجوهِ النَّاسِ يسير ، فـأطرقَ الإمـامُ حزينـا ، فقـد تيقَّـن أنَّ أنصــارَه قـد انفَضّوا من حولِه .

القصص الديني
الحلقة الثالثة
قصص الخلفاء الراشدين

مقتل الإمام

تأليف
عبد الحميد جودة السحار

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

بسم الله الرحمن الرحيم

« فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهْ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهْ » .

(قرآن كريم)

١

اجتمع الحَكمانِ أبو موسى الأشعريُّ وعمرُو ابنُ العاص فى دُومةِ الجندل ، وخدع عمرٌو أبا موسى ، فخلع أبو موسى عليّا ، وثبَّت عمروٌ معاوية ، ورأى عليٌّ أنَّ الحكَمينِ لم يحكُما بما فى كِتابِ اللّه ، فطلب من أهلِ العراقِ التَّأهُّبَ للخروجِ لقتالِ أهلِ الشَّام ، ولكنَّ أهلَ العراقِ لم يسمعوا له ـ كما هى عادتُهم ـ بل طلبوا منه أن يقاتلَ الخوارج ، ثم إذا انتهى منهم خرج لقتالِ أهل الشَّام .

وانتصرَ عليٌّ على الخوارج عند النَّهرُوان ، وتأهَّب للسَّير إلى الشَّام ، ولكنَّ أنصاره تركوا

العسكرَ فارغا ودخلوا بيوتَهم . وآن أوانُ الحَجّ ، فأرسلَ عليٌّ عاملَه ، على الحجّ ، وأرسل معاويةُ عاملَه ، واختلف العاملان ، وكان بينَ الحُجّاج، بعضُ الخوارج ، فاجتمعوا وقالوا :

ـ كانَ هذا البيتُ (الكعبة) معظمًا فى الجاهلية ، جليلَ الشَّأْنِ فى الإسلام ، وقد انْتَهَك هؤلاء (أى عليٌّ ومعاوية) حرمتَه ، فلو أنَّ قومًا شرَوْا أنفسَهم، فقتلوا هذين الرَّجلين اللَّذين أفسدا فى الأرض ، واستحلاّ حرمةَ هذا البلد ، استراحت الأُمَّة ، واختارَ النَّاس لهم إماما .

فقال عبدُ الرحمن بن مُلْجَم :

ـ أنا أكفيكُم عليّا .

وقال الحجَّاجُ بن عبد اللّه الصَّريمى :

ـ أنا أقتلُ معاوية .

وقال زاذَوَيْه :

ـ واللّه ما عمروُ بنُ العاص بدونِهما ، فأنا به .

واتّفقوا على يومٍ واحدٍ يكون فيه القتل ، ثم انطلق كلٌّ منهم إلى صاحبِه الَّذى توجه إليه .

٢

كانت قَطامُ ابنةُ الشِّجنَّة فائقةَ الحسن ، وكانت تكرهُ الإمامَ عليَّ بنَ أبى طالب ، فقد قتلَ أباها وأخاها يوم النّهْرُوان ، يوم قاتل الخوارج ، فكانت لا تفكّر إلاّ فى قتلِ عليّ ، والثأرِ لأهلِها .

وفى ذاتِ يوم جاءَ عبدُ الرَّحمنِ بنُ مُلجَم إلى بعض الخوارج، فرأى قطامِ عندَهم ، فأسره جمالُها، وشغلته حتى كَادت تُنسيَه حاجته .

وتمكّنَ حبُّ قطامٍ من قلبِ ابنِ مُلجَم ، فتقدّم يخطبُها ، فقالت له :

ـ لا أتزوَّجُك حتى تَشفِيَ لى .

ـ وما يَشفيك ؟

ـ ثلاثةُ آلافٍ وعبدٌ وقَيْنةٌ .

وقتلُ عليٍّ بالحُسامِ المهَنَّدِ .

فقال ابن ملجَم :

ـ هو مهرٌ لك ، فواللّه ما جاء بي إلى هذا القطر إلا قتلُ عليّ . فلك ما سألت .

ـ إنّي أطلبُ لك من يسندُ ظهرك ، ويساعدُك على أمرِك .

وأقام ابنُ مُلْجَم عند قَطام ، ومرَّتِ الأيّامُ ولم ينفِّذْ ما عزم عليه . فاستولتْ عليها الوساوس ، وخشِيَتْ أن يُحجِمَ عمَّا عزم . فالتفتتْ إليه وقالت :

ـ لطالما أحببتَ المكثَ عند أهلِك ، وأضربتَ عن الأمرِ الذى جئتَ بسببه .

ـ إنَّ لى وقتاً واعدتُ فيه أصحابى ، ولن أجاوزَه . وخرج ابنُ ملجَم فلقِيَه رجلٌ من الخوارج ، فقال له :

ـ هل لك فى شرفِ الدنيا والآخرة ؟

ـ وما ذاك ؟

ـ تساعدُنى على قتلِ عليّ .

ـ ثكِلتكَ أمُّك ، لقد جئتَ شيئاً إدّا ، قد عرفتَ غَنَاءَه في الإسلام ، وسابقته مع النبيِّ صلَّى اللّهُ عليه وسلّم .

ـ ويحَكَ ، أما تعلمُ أنّه قد حكَّمَ الرِّجالَ فى كتاب اللّه ، وقتلَ إخواننا المُصلِّين ، فنقتلُه ببعضِ إخواننا .

ـ وكيف نَقْدِرُ ويحَك على قتلِ ابنِ أَبى طالب ؟

ـ نكمنُ له فى المسجدِ الأعظم ، فإذا خرج لصلاةِ الفجر ، فتكنا به وقتلناه ، وشفَيْنا أنفسَنا منه ، وأدركنا ثأرَنا.

فلم يَزَلْ به حتى أجابَه . وذهب ابنُ مُلْجَم وصاحبُهُ إلى قَطام ، وهى فى المسجدِ الأعظمِ معتكفة ، فقالا لها :

ـ قد أجمعَ رأيُنا على قتلِ عليّ .

ـ فإذا أردتُم ذلك فأتونى .

٣

وَوافى اليومُ الذى تواعَد فيه الخوارجُ على قتلِ علىٍّ ومعاويةَ وعمرو ، فدخل ابنُ مُلْجَم على قطام ، فقال لها :

ـ هذه الليلةُ التى واعدتُ فيها صاحبىَّ أن يقتلَ كلٌّ واحدٍ منّا صاحبَه .

وجاء ذلك الذى أَجابَه إلى الاشتراكِ معه فى قتل علىّ ، فقالت لهما قطام : إن ثالثاً سيخرجُ معهما لقتلِ علىّ ، وجاءت بالحريرِ فعصَبتهم به ، وأخذوا أسيافَهم ، وذهبوا إلى المسجد ، لاغتيال أميرِ المؤمنين .

وخرج علىّ ، وجعل يُنهض الناسَ من النومِ إلى الصَّلاة ، ويقول :

ـ الصَّلاة الصَّلاة .

فهجم عليه أحدُهم ، وضربه بالسَّيف ، ثم ضربه ابنُ مُلْجَم بالسيف على قَرنِه ، فسَال دمُه على لحيتِه ، وصاح ابنُ ملجم :

ـ لا حكمَ إلاّ للّه ، ليس لك يا علىُّ ولا لأصحابك . ومن الناسِ من يَشْرى نفسَه ابتغاءَ مرضاةِ اللّه ، واللّه رءوفٌ بالعباد .

وقال علىّ :

ـ لا يفوتنّكم الرجل .

وهجم النّاسُ على ابن مُلجَم من كلِّ جانب ، حتى أخذوه. وحُمل الإمامُ ، حتى إذا ما استقرَّ فى داره قال :

ـ علىَّ بالرجل .

فأدخل عليه ، فالتفتَ إليه وقال :

ـ أىْ عدوَّ اللّه ، ألم أُحسن إليك ؟

ـ بلى .

ـ فما حملك على هذا ؟

ـ شحذتُه أربعينَ صباحا ، وسألتُ اللّه أن يقتلَ به شرَّ خلقِه .

ـ لا أَراكَ إلا مقتولاً به ، ولا أراك إلا من شرِّ خلقِه .

ونظر الإمام إلى الحسن ، وقال :

ـ أطيبوا طعامَه ، وألينوا فراشَه ، فإن أعشْ فأنا ولِّ دمى ، إمَّا عفوتُ وإمّا اقتصصت ، وإن أمتْ فألْحِقوه بى ، ولا تعتَدوا ، إنَّ اللّهَ لا يُحِبُّ المعتدين .

وخرج الحسنُ بابنِ ملجَم وهو مكتوف ، فخرجت أمُّ كُلثومِ ابنةُ الإمام تبكى وتنتحبُ وتقول :

ـ يا عدوَّ اللّهِ قتلتَ أميرَ المؤمنين .

ـ ما قتلتُ أميرَ المؤمنين ، ولكن قتلتُ أباك .

ـ واللّه إنّى لأرجو أن لا يكونَ عليه بأس .

ـ ولِمَ تبكين إذن ؟ واللّهِ لقد أرهفتُ السَّيف ، ونفيتُ الخوف ، وضربتُ ضربةً لو كانت بأهلِ الشَّرقِ لأتت عليهم .

٤

وحَمَل صاحبُ معاويةَ عليه وهو خارجٌ إلى صلاةِ الفجر ، فضربهُ بخنجر مسموم ، فجاءت الضربةُ فى ورِكه ، وأمسِك بالرَّجُل ، وجىءَ به إلى معاوية ، فقال :

ـ اتركنى ، فإنّى أبشِّرك ببشارة .

فقال معاوية :

ـ وما هى ؟

ـ إنَّ أخى قتل فى هذا اليوم علىَّ بن أبى طالب.

ـ فلعلَّه لم يقدِرْ عليه !

ـ بلى ، إنَّهُ لا حرسَ معه .

وأمر معاويةُ به فقُتل .

وأما صاحبُ عمرو ، فإنه كَمنَ له ، ليخرجَ إلى الصَّلاة ، فاتّفق أَن عرضَ لعمرِو بنِ العاص مغص شديدٌ فى ذلك اليوم ، فلم يخرجْ إلا نائبهُ إلى الصلاة ، وهو خارجةُ بنُ أبى حبَيبة ، فحملَ عليه الرَّجل ، فقتله وهو يعتقدُه عمرَو بنَ العاص ، وقُبِض على الرَّجل ، وجِيءَ به إلى عَمرو ، فقال :

ـ أردتُ عمرًا وأراد اللّه خارجة .

فأمر عمروٌ به فضُربت عنقُه .

ونجا معاويةُ وعمرو ، وراح الإمام يعانى سَكراتِ الموت .

٥

دخل الناسُ على الإمامِ يسألونَه ، فقالوا :

ـ يا أميرَ المؤمنين ، أرأيتَ إنْ فقدناك

ـ ولا نفقِدُك ـ أنبايعُ الْحَسن ؟

ـ لا آمرُكم ولا أنهاكُم ، أنتم أَبصر .

ـ ألا تَعْهَدُ يا أَميرَ المؤمنين ؟ (أَى أَلَا تعيِّنُ الخليفةَ من بعدِك) .

ـ لا ، ولكن أتركهم كما تركهم رسولُ اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم .

ـ فماذا تقولُ لربِّك إذا أَتيته ؟

ـ أَقول : اللَّهمَّ إنك أبقيتنى فيهم ما شئتَ أن تُبقِيَنى ، ثم قبضتَنى وتركتُك فيهم ، فإن شئتَ أَفسدتَهم ، وإن شئتَ أصلحتَهم .

ثم دعا ابنَيْه الحسنَ والْحُسين ، فقال :

ـ أُوصيكما بتقوَى اللّه ، وألا تبغِيا الدُّنيا وإن بغتكُما ، ولا تبكِيا على شيءٍ زُوِى عنكُما ، وقولا الحق ، وارحما اليتيم ، وأغيثا الملهوف ، واصنعا للآخِرة ، وكونا للظالِمِ خَصما ، وللمظلومِ ناصرا ، واعملا بما فى الكتاب ، ولا تأخذكما فى اللّه لومةُ لائم .

ووَهنَ أميرُ المؤمنين ، وراح الرجلُ العظيم يجود بأنفاسِه ، فخشِيَ أن يطيشَ الغضبُ بعقـولِ بَنيـه ، فقال لهم :

ـ يا بنى عبدِ المُطَّلب : لا أَلفِينَّكم تخوضونَ دماءَ المسلمين، تقولـونَ قُتـل أمـيرُ المؤمنـين ، قُتـل أمـيرُ المؤمنين ، ألا لا يُقتلْ إلا قاتلى .

ثم راح أميرُ المؤمنين يردّد :

ـ لا إلهَ إلاّ اللّه . . لا إلـهَ إلاّ اللّـه .. لا إلـهَ إلاّ اللّه . «فمـن يعمـلْ مثقـالَ ذرَّةٍ خـيرًا يـرَه ، ومـن يعملْ مثقالَ ذرَّةٍ شرًّا يرَه »

ولفظ الإمـامُ نفَسَه الأخـير ، فمـات خيرُ أهـلِ زمانِه ، وانتهى بموتِه عهدُ الخلفاءِ الرَّاشدين ، وبَـدأَ معاويةُ فى الشّامِ تأسيسَ دولةِ الأمويِّين .

وخرج الحسنُ إلى النَّاس ، وعليـه ثيـابٌ سـود ، فقال وهو يغالبُ دموعَه :

ـ لقـد قُبـضَ فـى هـذه الليلـة ، رجـلٌ لم يَسـبقْه الأوَّلون ، ولا يُدرِكُه الآخِرون . لقد كان يُجـاهد مـع رسـولِ اللّـهِ صلـى اللّـه عليـه وسـلَّم وآلــه ، فيسبقُه بنفسِه ، وقد كان يوجِّهه برايتِه ، فلا يرجعُ حتى يفتَحَ اللّه عليه ، ولقد تُوُفِّـىَ فـى الليلـةِ التى عُرِج فيها بعيسَى بنِ مريمَ (أى فى الليلةِ التى رُفِـع فيهـا عيسـى إلى السـماءِ) ولا خلَّـفَ صفـراءَ ولا بيضاءَ ، إلا سبعَمائِة دِرهم مـن عطائِـه ، أراد أن يبتاع بها خادمًا لأهلِه.

ثم خنقتْه عَبَراتُه ، فبكى ، وبكى الناسُ معه .

وبعثَ الحسنُ إلى ابنِ مُلْجَم ، فقال للحسن :

ـ إنِّى واللّهِ ما أعطيتُ عهدًا إلا وفيتُ به ، إنّـى كُنتُ قد أعطيتُ اللّهَ عهدًا أن أقتلَ عليًّـا ومعاويـة أو أموتَ دونَهما ، فإن شئتَ خلَّيتَ بينـى وبينَـه ، ولكَ علىَّ عهد اللّـه إن أنـا لم أقتلْـه ، أو قتلتُـه ثـم بقيت ، أن آتيَكَ أضعُ يدى فى يدك .

ـ أما واللّه حتى تعاينَ النار فلا .

وقُتِل ابنُ مُلْجَم ، فأخذه الناس ، ثم أحرقوهُ بالنَّار ، لعلَّهم يَشفُونَ نفوسَهم التي كانت ترعى النارُ فيها حزناً على الإمامِ العظيم ، الذى كان خيرَ أَهلِ زمانِه .